

اتحاد الأدباء الكرد
المركز العام 20

مكتبة ماجد الحيدر

<http://www.faraboo.com/30000>

الروحيل الدامي

رواية قصيرة

حمه كريم عارف

ترجمة جلال زنكبادي



اتحاد الادباء الكرد

المركز العام ٢٠

عنوان الكتاب: الرحيل الدامي (رواية قصيرة)

تأليف: حمه كريم عارف

ترجمة: جلال زنكبادي

الطبعة الاولى - ٢٠١٢

تصميم الغلاف: ستار قرداخي

مطبعة: رؤى هلات - اربيل

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (٥٨٨) سنة ٢٠١٢

* حقوق الطبع محفوظة لاتحاد الادباء الكرد

حمه كريم عارف

الرحيل الدامي

(رواية قصيرة)

ترجمة ودراسة:

جلال زنگابادي

الإهداء

مهداة إلى الروح الطاهرة للفنان المأسوف على شبابه كامران صديق

حمه كريم عارف

(الرحيل الدامي) رواية كردية رائدة

جلال زنگابادي

لهذه الرواية بنية فنية محبوكة رشيقة ومتماسكة تستند بالأخص إلى تقنية البوليفونية (تعددية الأصوات الساردة) تكريماً لطرح تعددية وجهات النظر، ولذا فهي تنقسم بدنيامية عالية تفتقر إليها الحكمة التقليدية، التي يحتكر فيها (الراوي العليم) عموماً مهمة السرد؛ ففي البوليفونية ينحسر السرد الأحادي، لتحل محله السرد المتعددة، التي تنتج حرية تصوير المشاهد والمواقف من منظور تعددي إضافة إلى استبطان دواخل الشخصيات لتعبر بحرية عن خصوصياتها، في حين يخفت صوت (الراوي العليم) وتلاشى هيمنته البطيريركية الفارضة لأحادية المنظور على فضاء الرواية قسراً؛ فهنا تسود النغمة الإحتمالية والشكوكية المجسدة لإشكاليات طبائع الشخصيات، حيث يدخل القاريء " في مآهات المعضلات الإنسانية التي تعاني منها الشخصيات؛ لا بغية التوحد معها من منطلق التفوق أو حتى التعاطف، كما كان الحال في الرواية التقليدية، وإنما من منطلق الإكتشاف الذي يتطلب درجة واضحة من درجات الانفصال عن الموقف الروائي" (١)

من الجلي أن الكاتب القدير حمه كريم عارف قد أفلح في الهيمنة على إدارة حبكة الرواية بالتحكم بتقنية البوليفونية، التي كسرت رتابة السرد؛ حيث لا يطفئ على (الرحيل الدامي) راو عليم كلي المعرفة، وإنما ثمة ثلاثة مستويات أو ثلاث طرق سردية للسرد تتبع القفز والنفلات بين الأمكنة والأزمنة المختلفة ومستوى الواقع في السرد؛ لتقديم مجمل الرواية بما فيها من شخصيات وأحداث وأفكار... ويمكننا تصنيف رواتها، وهم يتموضعون في (مستوى الواقع) وهو مستوى عالم واقعي، وليس فنتازياً، كما يلي:

١- مستو: وهو راوي - شخصية رئيسة يروي بلسان الشخص الأول المتكلم (أنا) ويختلط في منظوره مكان الراوي مع المكان المروي ، ويطغى المونولوج على سرده، وبطريقة (الإلتفات) أحيانا قليلة.

٢- صادق: مثله راوي - شخصية رئيسة ، ولكن بطريقة (الإلتفات) عموماً. و(الإلتفات) هو التحدث إلى النفس باتخاذ ضمير المخاطب (أنت) ذريعة لذلك.

٣- (الراوي الملتبس) والذي لا يعرف عنه إذا ما كان يروي من داخل العالم المروي ، أم من خارجه، وهو حديث العهد، انه تحتاج الرواية الحديثة حسب توصيف ماريو بارغاس يوسا(٢) وهو في (الرحيل الدامي) أكثر شبهاً بالراوي العليم ، حيث يظهر ويتدخل بلسان الشخص الثالث (الغالب) بين حين وآخر؛ لإعادة وتسيير عملية السرد، بدون المشاركة في الأحداث، بلا غطرسة ولا إحام لأرائه ومواعظه وأحكامه. وثمة أيضاً رواة آخرون ثانويون تتشعب سرودهم (بطريقة إسنادية) من سرود الرواة الثلاثة الأساسيين ؛ ولذا يحدث تداخل وتقاطع وتشابك سردي . ومن الملحوظ أن (الفلاش باك) يهيمن عموماً على تأثيث (الرحيل الدامي) و هو يعول بطبيعته على الذاكرة والمخيل.

معلوم أن الحكمة في الأجناس السردية هي " سياق الأحداث والأعمال وترابطها ؛ لتؤدي إلى خاتمة" (٣) والترابط عموماً سببي يتأسس على العلاقة الجدلية بين السبب والنتيجة. والسرد ينتظم في الحكمة الضابطة لجريانه، وفي (الرحيل الدامي) تتجلى العلاقة الجدلية لأنماط الزمن بتعددية السرد وتنوعه ، وهو سرد يتشعب إلى: السرد الإعتيادي و السرد الإسترجاعي التذكري الذي يستعيد ويستحضر أحداث الماضي ، و هو المهيمن على الرواية ، وبلية السرد الإستباقي وهو بطبيعته تخيلي ، ولئن كمنت طاقة الحرية في التخيل ؛ فهو يستشرف المستقبل ويتنبأ بأحداثه بطريقة إعتيادية مثلما الحال في توقع مستو لمقتله عبر سرده لواقعة مقتل ميابند، أو بطريقة رمزية مثلما الحال في أحلام أم مستو التي إستبقت حادثة إعتقال زوجها صادق في أحد أحلامها وما أصاب مستو (لاحقاً) في حلم آخر. ومن ثم تتضافر هذه الأنماط السردية في التشكيل السرد للرواية، و نلمس مهارة الكاتب وبراعته في توظيف عناصر البناء

السردى و وسائله المتشابهة ، التي لا يمكن فصلها عن بعضها البعض إلا مجازاً و بعسر ؛ من أجل دراستها، فثمة الشخصية (بتكوينها الفيزيقي والنفسي والفكري) باعتبارها من أهم عناصر الرواية ؛ لإرتباطها بالأحداث ومجمل الصراعات (الذاتية والموضوعية) و شخصيات (الرحيل الدامي) مرسومة بدقة مشهودة ؛ بحيث نتحسس وجودها ككائنات حية ذات ملامح خاصة : فيزيقية و سايكولوجية وفكرية، وهي تختلف فيما بينها بأفكارها وأقوالها وأفعالها، وهنا نشير إلى الحضور الساطع لميابند ، رغم غيابه، وذلك عبر أمه وصادق ومستو وأعدائه، على سبيل المثال.

و من الملحوظ أن المونولوج يطغى لدى الشخصية المأزومة (مثل مستو و خليفه خدر) حيث يكشف عن صراعاتها الباطنية وخباياها النفسية والفكرية، في حين يكشف الديالوغ عموماً عن الصراعات بين الشخصيات كما الحال بين (محمود) و(ميابند)

فضلاً عن المضمون المهم لـ (الرحيل الدامي) يستلقت شكلها الفني النظر بعنصريه: (الأسلوب) و(النسق) الذي يتحقق في الترتيب السردى الفني للمضمون ، وهو يشمل الراوي و المكان والزمان.

ولأننا تناولنا سالفاً رواة الرواية و شخصياتها؛ فقد وجبت الإشارة (الخاطفة و لو) إلى عناصر: المكان والزمان والحدث.

المكان في هذه الرواية (الواقعي ، أو المتخيل ، أو المركب من كليهما) يُبنى بالوصف ، وهو وصف ذو وشائج بالوصافين أنفسهم، وليس بوصف جامد ، أي أن الأمكنة (الرئيسة والثانوية) الوارد ذكرها في الرواية ليست معزولة ، وإنما تقترن بشخصيات وأحداث كما الحال في وصف القرية ، وغرفة القيادي الحزبي محمود، من منظور مستو.

أما الزمان فليس في (الرحيل الدامي) زمن موضوعي كرونولوجي (تسلسلي) وإنما يطغى عليها الزمن الذاتي السايكولوجي (النفسي) والذي طالما يركز على التذكر و التخيل .

وأما الحدث (سواء أكان حقيقياً أو متخيلاً) فلكونه أصلاً فعلاً ؛ فهو يقتزن بزم من محدّد و يستند إلى حبكة، و ينفرز منه التوتر الدرامي ، ومن الأمثلة عليه: واقعة عرس صادق ، واقعة ضياع القافلة وواقعة إستشهاد مستور.

وتعود أهمية الأسلوب ، و هو جوهري يرتكز على اللغة التي ثروى بها القصة ، تعود حسب تشخيص (يوسا) إلى كون : " الروايات مؤلفة من كلمات ، وهذا يعني أن طريقة الروائي في اختيار مفردات اللغة وصياغتها وترتيبها ، هي عامل حاسم في جعل قصصه تمتلك قوة الإقناع أو تفتقر إليها، ولكن لايمكن للغة الروائية أن تكون مفصولة عما تقصه الرواية، أي عن الموضوع الذي يتجسد في كلمات" (٤) ففي (الرحيل الدامي) تتبين أصالة أسلوب كاتبها المنفتح على توابل الأمثال والأقوال الشعبية الشائعة، واللادعة خاصة، بما تنطوي عليها من كنايات كريدية وغير كريدية ، ومنها(٥):

" يا من تجبن أمام الحمار وتمتأسد على البردعة!" / " أليس الكبير يمكب الماء؛ ثم يترحلق الصغير...؟!"/ " فلا بد أن ينجلي الليل مهما طال"/ " الخروف الذكر للذبح"/ " إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح " أي " الذي لايعرف تدابيره؛ حنطته تأكل شعيره" حسب القول الشعبي العراقي المأثور/ " إخش الماء الراكد"/ " ترعى مع الخرفان وتأكل مع الذئب !"/ " فالموت موت ؛ فلماذا اللبث والرفس؟!"/ " المطحنة في خيال ، والطحان في خيال آخر" ويعادله في القولكلور العراقي: " عرب وين و طنبوره وين ؟!/ " إنها نارنا الملهية لن نعطيها للبننت الغريبة"/ " النار فاكهة الشتاء والبرغل علف الرجال!"/ " هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه....."/ " اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحية!"/ "...فهو أنا في سبعة قنور!"/ و" في كل شعرة من لحيتي ألف حيلة!"

ويتميز أسلوب الكاتب بتكرار بضع (لازمات) تنشط السرد وتقوي تماسك شكل الرواية، وتنحن إيقاعها بالدينامية ، ومنها:

"ها هنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسية لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً..."/ " ها...إنه رجلك المصطفى ! قسماً

بأنه يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاربة حتى لو إنسبغت الأرض أمامها!"/ " إن البيشمرکه هو من أشعل الثورة العارمة في ذاته أولاً. إن البيشمرکائي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبها ؛ فالثورة تغيير... تغيير في ميادين الحياة كلها..."/ " البيشمرکائي محبة خالصة بلا رياء"/ " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يذعن كلياً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضائنا في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل ؛ نقله ، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."/ " هاتوا قافلة تحمل أحراني ويلاه..."/ و " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمرکه"

تتكون (الرحيل الدامي)- في ترجمتها العربية- من قرابة (١٥٢١٠ كلمات) أي انها نوفيلا(رواية قصيرة) لكننا نعلم جيداً أن الأهمية الأدبية لاتقاس بطول أية رواية أو قصصها ؛ ف (المسخ) - أقصر روايات كافكا- ذات مكانة أهم من (القصر) التي هي أطول رواياته (٦) وحسب (الرحيل الدامي) إنها رواية كردية بلحمتها وسداتها ؛ فثمة مئات الألوف ، بل أكثر مثل شخصياتها بين ظهرانيها ، وقد حدثت وما زالت تحدث الآلاف من أحداثها في كردستان ، وهنا درة لأي النياس ؛ أمل أن توضح الجولة السريعة الآتية مجريات الرواية:

في الفصل {١}/(٢١٣ كلمة) يستعيد مستو عبر مونولوج ما جرى بينه وبين والده صادق ؛ إثر تصريحه بعزمه على الإلتحاق بالعمل الفدائي في جبال كردستان. ثم ينتقل السرد إلى (الراوي الملتبس) ليروي ما يدور بين والد مستو والدته...

في الفصل {٢}/(٢١٨١ كلمة) يواصل (الراوي الملتبس) سرد مايجري بين صادق والد مستو والدته ، وكيف انتوى والده التبرأ من أبوته له ، ثم يتولى صادق بنفسه مهمة السرد ، مستذكراً عبر (فلاش باك) سنوات الماضي ؛ حيث يروي حلم زوجته (آته) ذا الدلالة ، حين كان مستو طفلاً صغيراً ، وكيف ثلثه واقعة اعتقال صادق وتغذيبه والتحقيق معه من قبل أزام الأمن العراقي ،

وصموده المشهود عبر الصمت رغم صفوف التعذيب النفسي والجسمي. والملحوظ في هذا الفصل هو أن صادق دوغري يسرد ما جرى له وخاصة في واقعة الإعتقال بمونولوغ إسترجاعي وبطريقة (الإلتفات) أي مخاطبة الذات (الأنأ) بضمير (أنت) وهي الطريقة التي تلازمه عموماً طوال فصول الرواية. ويفلح الكاتب في تصوير أسر لمشهد حلم أنه (أم مستو) و مشاهد الإعتقال والتعذيب بما فيها من أساليب الترغيب والترهيب ، وكذلك مشهد حلمه بالمهر بعد التعذيب خلال الإعتقال.

كان لإسترجاع واقعة إعتقال صادق في مقبل عمره التأثير النفسي والفكري الحاسم في موقفه المناوي لإلتحاق ابنه مستو بالعمل الفدائي: " لا ، لا ، لماذا أتيراً منه؟! " و " أترك تجهل كونه من أبناء شعب محكوم ؟! ثم أترك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن يصيروا ببشمر كه؟! ليت لساني يُترَق قبل النطق بتلك العبارة..." وهكذا نراه يذعن لقرار ابنه مستو ، الذي لا يمكن تجاهل إصراره في التأثير على موقف والده.

في الفصل {٣٣}/(٢٣٠٥ كلمات) يروي مستو (بعد أن صار ببشمر كه) بطريقة الإلتفات كيف قصد ذات غسق إحدى القرى الكردية المحررة للإيواء ذات ليلة ، حيث يقدم لمشارفها ولها مشهداً بانورامياً ، تتخلله ندائاته النفسية والذهنية، وتتطلع من خلاله على أهم المشاهد اليومية لأهالي القرية ، ألا وهو مشهد نبع الماء الذي تقصده النسوة والفتيات... وينقل مستو حواراً عاماً (جملة وعباراته منتقاة بذكاء) يدور بينهن ويكشف بصراحة جريئة عن بعض المسكوت عنه في تلك القرية بصفتها مجتمعاً كردياً مصغراً " وهناك تتصدع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وقرقة الصفائح والبراميل والشتائم وقهقهات الفتيات وحمحات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة، وأدعية ولعنات الزوجات الحائقات على أزواجهن..

- ليبتله الله بالعمى!

- شلّ لسانك

- بنت فاطمة المغناجة أراقت ماء وجهها!

- شيق لرجها خطف عقلها!
 - هنيئاً لك يا (ميناً) الحولة
 - يا (ملكينة) تماديت في معاشرة (أحول)
 - عين الحسود تبلى بالعمى!
 - ليتك صرت زوجة أخي
 - بالله عليكم! إفسح لي المجال فأنا مستعجلة..
 - إنها محقة فتورها راجع!
 - ليتني كنت مثلاً!
 - أعمالك الله! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأنني سأغتسل به من الجنابات؟!
 - وأنا أعلل نفسي أن لي زوجاً، ليت الحمى الصفراء فتكت بجسمه!
 - وماذا بقي منك يا شمطاء؟!"
- ثم يروي مستو كيفية حلوله ضيفاً طارئاً على بيت ميرزا إسماعيل، ومادار بينه وبين ميرزا من حديث يتعلق بالببشمركايتي « من جهة ومادار من حديث بين خليفه خدر وميرزا عن (القائلة) وينتهي الفصل بمغادرته لبيت ميرزا، في ساعة متأخرة من المساء؛ لينام في المسجد أسوة بالببشمركة الآخرين « وكانت هذه الحالة شائعة في القرى الكردية المحررة.
- في الفصل {٤٤}/(١٧١٢ كلمة) يفتتحه الراوي الملتبس بوصف ما يعنيه صادق دوعري من ضيق و كرب سببه القلق على إينه الفتى مستو الملتحق بالعمل الفدائي منذ فترة؛ إذ انقطعت أخباره، ثم ينتقل السرد إلى صادق نفسه، والذي يسترجع بطريقة الإلتفات وعبر (فلاش باك) قصة زواجه من (أنه) حين كان ببشمركة في شبابه، وهي قصة أسرة نشوف القاريء مايتعلق بتقاليد وعادات الزواج في المجتمع الكردي (الريفي خاصة) وبعد استعادة ذكرى الزفاف، يتحاور مع أنه حول مستو، مذكراً إياها بليلة الزفة الأخيرة؛ فنقول له: "حسناً.. إكراماً لذكرى تلك الليلة؛ زرّ مستو" فيرضى ويقرر: "....سأسارع غداً بالذهاب إليه.."

في الفصل {٥٠}/(٢٠٤١ كلمة) يروي مستو كيف أعاد البطانية التي إستعارها في الليلة البارحة من بيت ميرزا إسماعيل ، مع صرة النقود التي وجدها في طياتها؛ فشكره (صبا) زوجة ميرزا مباركة فيه خصال البيشمركانتي . وبعد تناول الإفطار يتابع مستو سبيله ، حيث يخاطب نفسه: " حمدا لله مازلت بخير؛ لم أفن ، ولم تغزني رائحة القتالة بعد" ثم يستغرق في استذكار تداعيات إحدى المعارك التي نكس فيها البيشمرگه، وكيف أن بعض البيشمرگه نهبوا أغراض (أميد) المناصر لهم وكيف يرجو أميد عون المسؤول (سربست) الذي يرذ عليه بكل صفاقة: " أقول لك اذهب في سبيلك ؛ وإلا سأقبض على روحك أو تردني شهيدا!"

وهذا هو أول مجابهة في الرواية بين الشخصيات السوية والفاصلة في الحركة الكريية المسلحة.

وفي هذا الفصل نتعرف من خلال مونولوج مديد لمستو إلى أحد أسوأ المسؤولين الفاسدين ، ألا وهو (محمود) الداهية الممارس لمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" بلا وازع من ضمير؛ متحججا بالإخلاص للحزب والشعب والوطن : " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يدعن كلنا لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل ؛ نقله ، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."!

ونعرف لاحقا بأنه الرأس المخطط المدبر لقتل البيشمرگه سيابند وكذلك مستو. ثم يروي مستو قصة سيابند المغفور إستنادا إلى ما قصته والده عليه.

في الفصل {٦١}/(٧٢٥ كلمة) : يأخذ (الراوي المتنبس) زمام السرد ؛ فيوسع التعريف بمحمود المسؤول المجرم وأزلامه وزبائنته السفلة الأوغاد، وعلاقته الجنسية بـ (بروانه) أخت (نلير) الدبوث المقرب إليه ، ثم تتراءى الخيوط الأولى لتأمرهم على البيشمرگه المفاعض لفسادهم سيابند.

في الفصل {٧٧}/(٣٠٠٤ كلمات): يصف (الراوي المتنبس) مشهد القرية المحررة وحيثيات الجفوة المستديمة بين (الخال عزيز) و(خليفة خدر)

ويعرض الراوي عبر (خليفه..) محنة (القافلة) التائهة المفقودة، والجهود المبذولة سدى للعثور عليها؛ حيث يتبين في نهاية المطاف صواب رأي الخال عزيز وخطأ إختيار (خليفه خدر) لحادي القافلة.

وفي خاتمة الفصل ينبري الشاب (جمال) القائد الجديد لكوكبة الفرسان الشباب للإعتراف بالحقيقة المرة، واتخاذ الموقف اللازم: " وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهدر صوته:

- أيها الشباب .. لقد إنتهت أيضاً قافلتنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذن

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بنون قافلة!

- أجل لانستطيع الإستمرار ... لانستطيع العيش..

- فهلّموا لنقرّر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كلّ من هبّ و دبّ ... أجل ؛ لنعرف منذ الآن فصاعدا أنفسنا حق المعرفة ؛ لكي نعرف الآخرين على حقيقتهم . ثم إن المشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله ، وليس في أن يخذع ، ثم يخذع الناس بمسراب الأمانى الخاوية والأهواء.. وإذا لم يكن للراكب فارساً ؛ فسيصير عبئاً على الفرس ، و إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها ؛ فسيتمسبب في هلاك نفسه وضياع القافلة..."

في الفصل {٨}/(٦١١ كلمة): يطلعنا (الراوي الملتبس) على نص الرسالة الكيدية ، التي دبّجها (سلام) أحد أزالام (محمود) للإيقاع بالبيشمرگه سيابند ، ويحتوي النص على الحوار الدائر بينهما، ونستشف منه كون سيابند مثقفاً متأثراً بالفلسفة الوجودية في اتخاذ موقفه.

في الفصل {٩}/(١٩٠٩ كلمات): يستحضر مستو صورة (ميرم) أم سيابند المنكوبة المعذبة المخضرمة، ويقطع صوت صفارة إستنكاره ؛ إذ يتوجب عليه الإسراع مع البيشمرگه الآخرين إلى نجدة رفاقهم الذين يخوضون معركة لصد

هجوم قوات من الجيش العراقي والجوش الكرد، و يروي مستو خلال المسير في مونولوج طويل ، وعبر تداعيات ذاكرته شهادته عن إغتيال سيابند، مستعيدا تفاصيل الواقعة مع تداخلاتها وتقاطعاتها مع معطيات الحاضر المنثرة بمصيره الشبيه بمصير سيابند المغدور، لاسيما وأن دلبر الدبوث أخلص ألام محمود قد تسلم ببندقية برنو؛ لكي يبقى مع قوة المؤخرة خلال المعركة، بينما على مستو حامل الكلاشينكوف أن يكون مع الصانئين في المقدمة، وفعلًا يتحقق هاجس مستو ؛ إذ يصاب من الخلف ويؤدي جرحه البليغ إلى وفاته لاحقاً بعد اندحار العدو وعودة البيشمرکه إلى القرية، حيث يموت في مسجد القرية، بينما كانت جمهرة من الأهالي والبيشمرکه تتحلقه، بينها ميرزا والخال عزيز. ويدفن في مقبرة القرية نفسها. وفي هذا الفصل يتذكر مستو أمه الحبلى بمولود جديد.

وفي الفصل الأخير {١٠}/(٥٠٩ كلمات):

يشير (الراوي الملتبس) إلى مجيء صادق دوغري أبي مستو؛ لأخذ رفات مستو لدفنه من جديد في مقبرة مدينتهم، وسرعان ما يأخذ صادق زمام المرد بطريقة (الإلتفات) وتبين لنا بأن غايته الحقيقية هي التأكد من جواب سؤاله المورق : هل كانت إصابة مستو من الأمام أم من الخلف؟! وللتيقن من الحقيقة يسأل إثنين من البيشمرکه من رفاق مستو اللذين يصاحبانه حتى مشارف المدينة:

" لي سؤال يؤرقني ؛ فأرجو، و أستحلفكما بالله وكرستان أن تجيباني عنه بكل صراحة... هل كان مستو قتي جياناً يولي الدبر في المعارك؟

- كلا ، والله كان بطلا مقداما في كل المعارك ، بل كان في طبيعة الصانئين.. لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!

فانطلقت منك تهيدة عميقة حارقة: - لأنه أصيب من الخلف!"

لكن حدث مقتل مستو الشهيد المغدور لا يمثل النهاية الحقيقية لهذه الرواية ، فلي هذا الفصل بالذات تتجلى سيرورة وصيرورة الحياة والنضال؛ حيث تروي أنه أم مستو (الحبلى) حلمها الأخير المنذر بمصير مستو، وتطلب من زوجها صادق أن ينحر ذبيحة؛ نذراً لسلامتها بعد الولادة، وعندئذ يسألها صادق: " "

يا ترى ماذا نسمي إبننا هذا يا آته؟" فتجيبه: " ليسميه مستو ..إذهب و زره ، وليجد اسماً جميلاً له" (.....) " سمه أيضاً مستو"!

لقد تبيّن عبر العرض الخاطف السالف تولد بضع قصص أخرى ثانوية ذات علاقة بالقصة الرئيسية بالطريقة التي يشبهها يوسا بـ (العلبة الصينية) و ماتريوشكا (الدمية الروسية) (٧) حيث تتنازل القصص الفرعية عن الرئيسية ، والتي بتجسّد نموذجها الأبرز في (الف ليلة وليلة) فهي الإطار العام للـ (الرحيل الدامي) تطالعنا قصة مستو (و هي الرئيسية رغم عدم احتلالها لمساحة كبيرة) وتتشابك معها قصة والده صادق متداخلة ومتقاطعة معها، و ثمة تنصهر فيها قصص (القافلة) و (محمود) و (سيابند) وهي مسرودة بإسنادها إلى مستو و والده ، وتمثّل قصة مستو نقطة الإنطلاق ومحور الرواية ومركز السرد فيها ، وتليها في الأهمية قصة (القافلة) المترابطة جدلياً مع قصة مستو الرئيسية ، ثم قصة (سيابند) التي لا تقل أهمية عن كليهما رغم كونها ثانوية. والملاحظ في (الرحيل الدامي) هو (البناء المتوازي) لقصة القافلة الواقعة في الزمن الماضي (وهي ترمز إلى ثورة أيلول وانتكاستها ١٩٦١-١٩٧٥) مع قصة الثورة الراهنة في الرواية (منذ ١٩٧٦) رغم عدم ورود أي ذكر لهذه التواريخ في الرواية.

ولا ننحى من إستعارة فقرات - بتصرف من مقال سابق لي (٨) - تبيّن (الإلتزام الذاتي) للأديب والمترجم حمه كريم عارف في حراكه الثقافي على صعد كتابة القصة والمقال والدراسة والترجمة : يتبيّن لنا أن هذا الأديب ملتزم ذاتياً و أخلاقياً حتى النخاع و على الصعيدين القومي والإنساني ، خارج مدار أية ايديولوجيا ضيقة؛ إذ أن " أولئك الذين يقرعون الأجراس ، لا يساهمون في موكب الإحتفالات!" حسب تأكيد جان جاك روسو، ثم انه إذا كان شليكل قد رأى " أن المؤرّخ نبيّ يتعلّق إلى الماضي" فإن الأديب الفنان نبيّ يتعلّق حتماً إلى المستقبل ، كما يتعلّق عبره إلى الحاضر، خلافاً للسياسي الذي يلتصق بالحاضر المحدود في أغلب الأحيان؛ و من هنا تنبع إشكالية العلاقة بينهما. وفي (الرحيل الدامي) قد ساد "هذا القلق ، في مواجهة العالم الواقعي ، الذي

ينبره الأدب الجيد في النفوس ، يمكن له ، في ظروف معينة ، أن يُترجم أيضا إلى موقف تمرّد في مواجهة المطلقة ، أو المؤسسات ، أو المعتقدات السائدة " حسب تعبير يوسا ؛ وهذا ممّا يجعلنا أن نردّد مع فاسلاف هافل : " يتحوّل البشر إلى قطع من الأضام ؛ في مجتمع يفقد القدرة على التكلف بكلمة (لا) " ونضيف بأن الأدباء والفنانين يرتكبون أكبر خيانة؛ إذا ما ركزوا على تمجيد مناقب عصورهم وتجاهلوا مثاليه، مثلما تفاهم النفاق الثقافي في ظل الأنظمة الشيوعية والإستراكية، التي إستمرأت النفاق المتأم الذي ساهم أكبر الإسهام في حفر قبورها ودق المسامير في نعوشها...! وعليه فالصدق الصدق هو واجب الأدباء والفنانين ، من قبل ومن بعد ، حيث يجب عليهم سلخ القداسة عن كلّ ما هو زائف ؛ ف " عار على من يغني و روما تحترق!" كما صرخ لامارتين ذات مرة، وهنا تتجلى أهمية مقولة ماريو باركاس يوسا: " وظيفة الأدب تكون تأمرية دائما"

لقد كتب القاص والمترجم والإعلامي حمه كريم عارف هذه الرواية قبل أكثر من ربع قرن ، وبالأذات في تشرين الثاني / ١٩٨٦ في قرية (ياخضر) المحرّرة حين كان في صفوف البيشمركة (إذ أمضى تسع سنوات في خندق البيشمركايتي) ولكنها نشرت على نطاق محدود في ١٩٨٨ بل أفنى بعض القادة الكرد اللاجئين آنذاك في مدينة (سقز) الإيرانية بحرق نسخها في قرية (قاسم رش) على الحدود العراقية الإيرانية في منطقة سرشميت. ورغم ذلك فقد كانت مقروءة من قبل الصفوة المثقفة من البيشمركة. وحظيت بالترجمة إلى الفارسية من قبل شايبكان (أحد مثقفي الحركة المسلحة الإيرانية) في ١٩٨٧ ووزعت نسخها على نطاق محدود (قبل نشر نصّها الكردي) وقد ترجمها إلى العربية في ١٩٨٨ (فانز أبو شهاب) الذي كان شابا عربيا موصليا مثقفا مستقلا، إلتهق بالحركة الكردية المسلحة، ومن ثم هاجر إلى أوروبا بعد أنفال ١٩٨٨ ولأن المترجم لم يكن يجيد ويتقن اللغة الكردية ؛ فقد إستعان بصورة كاملة بالترجمة التمهيدية للمؤلف نفسه؛ فكان صفيحة في الحقيقة شبة ترجمة لما فيها من تصرّفات وحذوفات كثيرة (جمل ، عبارات ، فقرات وصفحات) لكنها مع ذلك

اتسمت بالريادة والتحدي في تلك الظروف العصيبة، ناهيك عن مقدماتها الجيدة ، والملحقة هنا (بعد التنقيح) بالرواية ؛ لأهميتها الفكرية.

صدرت لحدّ الآن ثلاث طبعات لـ (الرحيل الدامي) وقد جاء على الغلاف الأخير لطبعتها الأخيرة مايلي: " كانت الرحيل الدامي كشفاً فنياً مبكراً للمرحلة التي كتبت فيها ونشرت. كانت صرخة، كانت نداءً وكانت خطاباً داعياً لتغيير تكوين السلطة المسلحة ووضع الحركة التحررية آنذاك. إن مستوى شخصية ذات بضعة أبعاد، فهناك غير مستو: واحد يراه ميرزا، وآخر يراه محمود الخبيث ، وآخر يرى الآخرين ؛ ولذا يظهر عبر أولئك في مخيال القاريء مستوى متعدد الأبعاد. وتكتسب الشخصيات الأخرى وجودها الفني من خلال أناس آخرين ؛ فتمعرّف وتتجسّد في ذهن القاريء ومخياله" (٩)

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى رواية (تباح) للأديب الكردي الكبير محمد موكري، والتي صدرت أيضاً في (الجبّال) في ١٩٨٦ فهي بمثابة شقيقة (الرحيل الدامي) في انتقاد إشكاليّات الحركة الكردية المسلحة والكشف الجسور عن المسكوت عنه، والتي أثارَت أيضاً حفيظة وردود فعل أكثر القادة السياسيين و المثقفين حدّ تدخل زعيم الإتحاد الوطني الكردستاني جلال طالباني وكتابة مقدمة لترجمتها العربية (ط ٢ في ١٩٩٨) !

و هكذا لا غرو في كلّ ما سلف عن (الرحيل الدامي) فهي تبرهن بمضمونها الجريء وبنائها الفني الراقي على ريادة القاص الكبير حمه كريم عارف في مضممار الرواية الكردية (الفنية)؛ فحين كتبها ونشرها وظهرت لها ترجمة عربية وأخرى فارسية، كانت الرواية الكردية (الفنية) ما تزال تحبو في أجزاء كردستان كلها، بل لم يكن عدد الروايات الكردية قد بلغ عدد أصابع اليدين ؛ وعليه فهي تعدّ إحدى الروايات الرائدة في تاريخ الرواية الكردية (الفنية) التي تعود إرهاباتها إلى عشرينات القرن العشرين ، في حين شهدت الرواية الكردية نهضة كبيرة (عدداً و نوعاً) في تسعينات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، في خضمّ المعطيات والمثقفات السياسية والاجتماعية والثقافية المشهودة.

وختاماً أقولها بأسمى عميق أن ضعف حضور النقد الأدبي الحقيقي في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر قد تسبب في سدول ستور التعقيم على الكثير من الإنجازات الثقافية الإبداعية ، ولنا في الإنجازات الغزيرة والنوعية للكاتب والمترجم الكبير حمه كرم عارف أسطع الأمثلة. فهو تولد ١٩٥١ كركوك ، وحمل شهادة بكالوريوس في اللغة الكردية، ويترجم (عن اللغتين الفارسية والعربية) إلى اللغة الكردية ، وهو صحافي بارز في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر، وقد أتحف المكتبة الكردية بتأليف و تراجم تربو على التسعين كتاباً (نصفها لم يرَ النور بعد) ومن تأليفه: خمس مجموعات قصصية قصيرة و رواية (الرحيل الدامي) ومن ترجماته: نينا، رواية لثابت رحمن / الغريب لكامو/ الضحية لهيرب ميدو/ بعيد عن الوطن لقاسموف / الحرية أو الموت لكازانتزاكي / قصص صمد بهرنكي / قصص تشيخوف / قصص يلماز كوناى / فان كوخ لباول ايزلر/ يهودي مالطه لمارلو/ ريتشارد الثالث لشكسبير/ الجبران لأحمد محمود / قصص عزيز نمين / الإلياذه لهوميروس/ رواية ليزرك علوي / و الأوديسه لهوميروس...

و سبق لي أن ترجمت له مجموعة (ظل الصوت و قصص أخرى) الصادرة في ٢٠٠٥، كما شرقتي بمؤازرته في تصحيح و تحقيق و تقديم قاموسه الرائد والكبير (كوفند و زنار/ فارسي- كردي/ ١٢٠٠ صفحة من القطع الكبير) والصادر في ٢٠٠٦

إشارات:

- (١) القصة العربية والحداثة/ د. صبري حافظ/ ١٩٩٠ بغداد/ص ١٨٨
- (٢) رسائل إلى روائي شاب / ماريو بارغاس يوسا/ ترجمة: صلاح علماني/ ط١ / ٢٠٠٥ دار المدى للثقافة والنشر/ ص ٤٥.
- (٣) المعجم الأدبي/ جهور عبدالنور/ ط١/١٩٧٩ بيروت / ص ٩١
- (٤) رسائل إلى روائي شاب/.....ص ٣٣
- (٥) الجمل والعبارات والفقرات المستشهد بها مقتطفة من شتى صفحات رواية (الرهيل الدامي) في ترجمتها العربية(ج.ز).
- (٦) وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى الروايات القصيرة المهمة الأتية على مسيل المثال، لا الحصر: الأمير الصغير، انطوان دي سانت اكسويري، ت: يوسف غصوب / الجلد، كورزيو مابلارته، ت: صلاح عبدالصبور / الصوت ، غابرييل اوكارا، ت: نزار مروة / صاحب الفخامة الديناصور، خوزيه كاردوسو بيريس، ت: فاضل العزاوي / النورس ، ريتشارد باخ ، ت: عزة كبة/ الأمير إحتجاب ، هوشنگ گلشيري ، ت : سليم عبدالأمير حمدان/ و تلك الراححة، صنع الله إبراهيم
- (٧) رسائل إلى روائي شاب/.....ص ٩٩
- (٨) ظل الصوت وقصص أخرى/ حمه كريم عارف/ تقديم وترجمة: جلال زنگابادي / مؤسسة الشفيق - كركوك ٢٠٠٥/ ص ٦
- (٩) كوجي سوور/ حمه كريم عارف/ جابي سبيه ٢٠٠٧/ له بلاوكرأوه كاتي جابخانه ي شافان - هه ونير

الرحيل الدامي

(١)

- " مازالت رائحة الحليب الخام تفوح من فمك يا بني ؛ فما شأنك بذاك الميدان؟! لا تستعجل ؛ فمشوار الحياة أمامك مازال طويلاً... وإذا ما أمهل الموت امرنا ؛ فسيأتي أيضاً دورك ، بل و دور أبنائك وأحفادك..."
كلما كان يتذكر كلمات أبيه السالفة ؛ كان يشعر بالظعن في رجولته ؛ ولذا كان يصبر أكثر على إثبات رجولته وشهامته لأبيه ، بل لكل أب جبان على حدّ تعبيره.

- " إنك طفل... ما زلت طفلاً " لا يكف أبي عن ترديد هذه العبارة ، كما لو أنني لم أقطم بعد ؛ والله لأفعلنّ ما لم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحوك كل شخص ملحمة لي !

- ... هذا الصبيّ الغرير؟!

- ليست الشجاعة والرجولة مرهنتين بالعمر.

- أهذا خلف صادق دوغري؟!

- ماشاء الله من حكمتك يا رب!

- وآية مثلبة لصادق دوغري ، وهو الرجل بمعنى الكلمة؟!

منذ اليوم الذي كاشف فيه أباه ، وأسر له بعزمه على الإلتحاق بصنف
 البيشمركة؛ وأبوه عابس متجهّم ، مايرح ينظر إليه شزراً، ويتشاجر مع أمّه؛
 - من العسير أن ينشأ سالحاً من رضع حليبك يا كلبه!
 - دام ظلك يا رجل ؛ يا من تجبن أمام الحمار وتستأمد على البرذعة!
 - كفالك تهزرين بالحمار والبرذعة..
 - و ماذا إذن؟ أليس الكبير يسكب الماء؛ ثم يتزحلق الصغير...؟! وأنت نفسك
 هل فعلت القليل؟! طالما انتظرتك أمام الباب حتى الفجر، بل طالما تشققت
 قدماي على درب المسجن!

(٢)

.. نهض ومشى حتى باب الحوش. دمن يده في جيب صدريته. توقف برهة في
 مكانه، ثم نادى:
 - آتة! يا آتة! هاتي لي حافظة نقودي الموجودة تحت وسادتي.
 ألقت آتة نظرة على أطفالها، وأخذت إليه الحافظة بسرعة، وناولتها زوجها
 مبتسمة بعنوبة:
 - إلى أين تمضي في هذا الممء يا رجل ، وأنا أعد الحمام؟
 كان صادق رجلاً نحيفاً، ذا عيّنين واسعتين و حاجبين معقوفين كثين ، وعلى
 خذه خال كبير. وثمة شعرات بيض شابت سواد شعره. إنحدر نحو السوق ونبد
 الخطي وكلمات أمسه تطنّ في أذنيه:
 - سائبراً منك! لن أحسبك إبني! أيها الجاهد اللأبالي طابور من الأطفال معلق
 برقبتي ؛ فهل من العدل أن تتسبّب في ...؟

كان طائر خياله يحلق عالياً مع انحدار الشمس إلى المغيب ، ثم يحطّ على الأتام
 الخوالي... "كلّ وقت هو وقت الله" كان الوقت مساءً مثلما هو الآن . لم تكن آتة
 حينذاك هزيلة الجسم كما هي الآن ؛ فقد كانت تفيض حيوية ونشاطاً كطبية ،
 وكانت خصلات شعرها القطراني تتلألأ وهي تعارك المرأة. لكم كانت سعيدة

بيتها وحياتها! أجل؛ كانت لا تكف عن الحلم، وكانت في الصباحات عند تناول
الطور، وأثناء صبحها الشاي في الإسكنات ترفع رأسها بدلال وغنج:

- إنحر ذبيحة يا رجل...

- أهو حلم آخر جديد؟!

كانت آتة ترفع عينيها شبه الخضراوين، وتلمق شفيتها المكتنزتين بطرف
لسانها:

- أمهلني لأقصه عليك... رحمتك يا رب. إن شاء الله يكون فيه الخير. رأيت في
حلمي كلبنا وقد قصدنا ضفة نهر يجري مازه ررقاً مثلأناً وهو ينحدر
بغفوان، وبعض موجاته تحبو كالأطفال نحو الضفتين، حيث تتلاشى،
فتتلوها موجات أخرى وأخرى... بينما كنت تتلفت ناظراً يمينا ويسرا، ثم دنوت
مني وقلت: " هكذا هي الحياة أيضاً يا آتة تجري بين ضفتين " لكنني لم أفهم ما
كنت تعنيه؛ فغضيت ومسكت معصمي بقوة، وسحبتي لنخوض النهر، حيث
كانت الحصياء تتلألاً مشعة منعشة مثل البلكات في (يلك) وفجأة نلت مني
صرخة، وعدت القهقري، بينما بقيت أنت وسط الماء، ورحبت تقهقه ضاحكاً
علي، وإذا بالماء يتعكر بغثة ويقيض؛ فصحت: " أنج من السيل... خلص
نفسك " لكنما الإضطراب غلبك؛ فهرعت إلى الضفة الأخرى! وعندها
استيقظت على بكاء (مستو)

- خير إن شاء الله... كل هذا يا امرأة؛ لأنك تحسّين رأسك بالتخيّلات قبيل النوم!
كانما حدث توا.... فذات مساء في مثل هذا الوقت، بعد بضعة أيام من حلم آتة
السالف، إفتحمت زمرة من الأوباش بيتنا بغثة حتى دون طرق الباب، وسأل
أحدهم:

- أهذا هو بيت الأسطه صادق؟

- نعم، تفضلوا

- أهو أنت..؟

- نعم

- هيا إمش أماننا

- لكن...

- بلا أيما (لكن) و(ماكن) حين حرمة نفسك وسمرا بلا لفظ

والتفت المتحدث إلى رجل أسمر ضخم بجنبه:

- كبل يديه بالكليجة(الجامعة) يا خلف

و هكذا إقتادك الأوغاد ، وتخيلت أنه وهي تعول ، تولول وتلطم ، وتشد شعرها
وتتلف خصلات منها؛ فاحتشد حوالها الجيران، وكانت تسمع بالكاد مايدور من
كلام:

- يا للعار والشنار! أتبيكين بحضور الأعداء؟!

- صبرك يا ابنتي .. فلا بد أن ينجلي الليل مهما طال

- الخروف الذكر للذبح

- ولكن لماذا خروفي أنا بالذات يا عمّة خجي؟!

- صادق خروفا جميعا يا ابنتي

ومن الجهة الأخرى:

- هنيئا ها هي العقوبة ؛ تمارس الكوردايتي ؟!

- السياسة مقامرة كبرى، لايقدر على ممارستها سوى القلة

- تنكسر الجرة في الطريق إلى النبع

- ليصبه أكثر ؛ ما أشد ماكان ينظر إلينا شزرا ؛ كما لو إغتصبنا حق الكرد!

- إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح

إقتادوك وعند منعطف الزقاق عصبوا عينيك بوصلة، ثم صعدوك إلى مؤخرة
سيارة وهم يركلونك، ومذكوك على أرضيتها، وصفقوا بابها، وداسوا رأسك
بأقدامهم . لقد عاملوك كما لايعامل حتى الكلب! ثم إنطلقت السيارة كطلقة ،
وكان رأسك يرتفع مرتطما بسقفها في كل مطب. شعرت بحرقلة في لسانك
وأنت تطلق الآهات. أطفا أحدهم سيكارتة على خدك . تمعنت في الأمر بأنه من
المؤكد سيبقى فترة طويلة هناك على أقل تقدير، حتى يندمل جرح خدك ،
ويشفي إخفاؤه، ومن سوء الحظ جروحك لا تتندمل بسرعة.

ثم أنزلوك ؛ حالما علا صرير فرملة السيارة، وجرجروك جرّ الذنب لحمل،
وراحوا ينهالون عليك لكما وركلا في أحد الدهاليز، وراحوا يتقاذفونك كالكرة
، فدخلت وأصابك الدوار، وفجأة إذا بصوت يتردد كأنه الرعد:
- أيها السفلة ! من أمركم أن نعاملوه هكذا؟! يا من تلقيتم الخبز بلا تربية يا
أوباش يا أوغاد! ألا ينبغي أن تتحلوا بقليل من الأدب ول؟ صحيح أن قتل الكافر
عبادة، لكننا الجور حرام!
فكفوا عن ضربك وركلك
- حلوا عصابة عينيه

نفذوا الأمر فوراً صاعرين. فواجهت رجلاً احمر المحيّا ، حليق الشارب ، تنمّ
عيناه الصغيرتان خلف نظارته عن مكر بليغ. تمنع فيك مظهرًا إسفاقه، ثم
أغمض عينيه لحظة ، وهزّ رأسه مستنكراً وهو يقول:
- بنس ما تصرف هؤلاء الأوباش مع الرجل! حقاً ان الإنصاف صفة حميدة
للإنسان.

وبعدها شبك كفه بكفك واصطحبك إلى إحدى الغرف، ودعاك للجلوس على
كرسي، وقدم لك سيّارة، سارع بنفسه بإشعالها!
وعندها تذكرت كلام الأستاذ (برزو): " لاتخدغ أبداً يا صادق ؛ كل كلمة مفيدة
لهم هي نسمة غيلة تنعش أعمارهم الحافلة بالجرائم..
- نحن نعرف يا أخي بأنك رجل وحيد وفقير وبسيط ؛ فما الداعي لتجلبب
المتاعب لنفسك؟! "

كنت مطرق للرأس وجسمك وحده هناك.

ثم سعل وتابع على مهل:

- إننا نعرف كل شيء عنك ، لكن الأفضل لنا هو أن نخبرنا بلسانك ؛ لماذا
تقول؟ مال ، نقود ، وغليفة ، راتب وكلّ ما تشتهيهِ نفسك بين يديك.
فرددت في نفسك: " هذا الأجر الهائل مقابل خدمة صغيرة أمر لا يخلو قطعاً
من سر!" و لذت بالصمت أصم أبكم ، كأنك لم تكن موجوداً هناك. ثم غمغم

بصوت خفيض متبرماً، وراح يذرع الغرفة جينة وذهاباً، ثم توقف فجأة وهو يرنو إلى الباب:

- هات شاياً يا خلف

كان خلف طويلاً ضخماً مربعاً. دخل الغرفة حاملاً إسكانة شاي بدت كـ (دعبله) بيده . ومكث في مكانه كأنه يستفسر : " لمن يا سيدي؟ " ثم وضعها على طبله أمامك. واستعد مؤثياً التحية العسكرية، واستدار وغادر الغرفة. أشعل الأمر سيجارة . تمعن فيك ، ثم حول نظره إلى حذائه الملمع حديثاً واستغرق في التفكير... ثم نقر بأصابعه البيض النحيلة بضع نقرات على طاولته:

- حسناً... لنعد إلى موضوعنا. أخي الطيب لا ترم بنفسك في التهلكة ! أخبرنا فقط بإسماء رفاقك ، ثم اذهب بسلام إلى بيتك وأهلك

أما أنت فقد كنت أصم أبكم . تظن أنناك بـ " كل حركة من شفقتك لصالحهم نسمة عظيمة تنعش أعمارهم الحافلة بالجراتم... " و " قل : قسماً بالقرآن وبشرفي ألا أخون الكرد وكرستان "

ر كل بمقدمة حذائه قدمك وتساءل:

- هم م م ... ماذا نقول الآن؟ لا تقلق ! سيكون الأمر طي الكتمان... وهل يجوز أن نقابل إحسانك بالإساءة لاسمح الله؟! هم م م ... يبدو أنك تحسب نفسك مغدوراً مظلوماً!

واستدار وسحب درج مكتبه وأخرج ملفه ، وقال:

- هذه ملفتك الخاصة... هل أقرأ لك ما فيها؟ الاسم: صادق بكر ، معروف بـ

(الأسطه صادق كبابجي) محل السكن: كركوك - محلة إمام قاسم... فهل أستمع ، أم...؟

وأطبق الملفه، وقال:

- نحن نعلم بأنكم تجمعون التبرعات والأعطية والمعاطف ، وترسلونه إلى قطاع الطرق والслаبين ، ولنقل إكراماً لخطرك إلى (المتمردين)... لأولئك الذين يدعون الثورية ! إنهم يا أخي زمرة من الأغوات إلتجأوا إلى الجبال

منفوعين بمراميمهم ومآربهم الأنانية ؛ للإخلال بأمن البلد وسيادته...أليس من الكفر أن يتطاولوا على ظل الله على الأرض؟! إنهم يشيعون الإضطراب في هذا البلد الأمن ، في هذه البقعة الشريفة! فماذا تقول أنت؟ إذا كانوا صادقين في دعوتهم ؛ فليأتوا إلى المدن ، وليشعلوا الثورة بكل ما في وسعهم ! مثلك أنت على سبيل المثال! حسناً دعنا من كل ذلك واعطنا إسم شخص واحد فقط من جماعتك ، وأنا أعدك وعد رجل لرجل ألا أدعه يُعَذِّم ؛ إكراماً لخطرك!

ثم توقف عن الكلام وتمغن فيك ، واقترب منك على مهل، ثم نقر بسبائته أرنبه أنفك ، وهو يقول:

- أتعرف من أكون؟ ماذا يسمونني ؟ هه...أبو مازن جزار الأمن !
فقلت في نفسي: " خستت يا رجل بماذا تنباهي؟!"
- في هذه الغرفة بالذات قصمت ظهور أقوى الرجال وأرسلتهم كالخرفان إلى المجزرة!

ورفع يده مؤشراً:
- هذا الصف إلى الإعدام، و هذا حكم عشر سنين بالسجن ، وذلك بعشرين سنة...ولم يعترض احد بـ (لمماذا؟!) فأنا ههنا الحكومة ! فماذا تقول الآن؟ أما زلت ممنوعاً عن الكلام؟ ربما تحسبنا نفترى عليك لاسمح الله! وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن لي كراماتي التي كشفت بها عن خلفيا كثيرة حتى الآن! ويبدو لي بأنك نود أن أستخدمها أيضاً معك...صدقني انها كرامات تجلّ بالخزي كل مجرم !
كنت تخشى كثيراً هدوءه المصطنع...أجل ؛ إخش الماء الراكد...لنلا يخذلك باللسان الأملس ، وكنت تريد أن تفعل شيئاً ما؛ لكي يغيّر طريقة تصرّفه معك ؛ لكي يستثير غضبك. وعندها تنتهي صوت قادر الحلاق إلى أذنيك: " أسطه صادق..الصمت أعظم موقف أحياناً"

واستدار بسرعة على كعبه ، وسحب يده:

- أنظر! إلى تلك المرأة

كانت المرأة معلقة على يسار طاولته، وهي بطول قامه رجل.

وعندها غافلك واستدار راكلاً وجهك بكل ما أوتي من قوة . سرى الخدر في وجهك ، شعرت بحرارة عالية تلفحه ، وتساقطت بضع أسنان في فمك . وإذا نظرت في المرأة رأيت الدم النازف من فمك وأنفك مختلطاً مع دهان حدائه على نفك المبعوج ، ثم لم تسمع سوى :

- تعالوا خذوا هذا الدنيء ؛ كأنما القواد قد أقسم اليمين...

كان رأسك يطن طنيناً هائلاً ، وأنت على وشك الإغماء : " قل : أقسم بالقرآن وبشرقي إلا أخون الكردي وكرستان "

حين عدت إلى وعيك ، كانت أوصالك متصلة كأنها مسبوكة . لا يمكنك الإتيان بأية حركة ، واستغرقت في التفكير : ها قد حلّ اليوم الذي ينتظره (مينه زل) ؛ سيذهب إلى أنه ، ويغمرها بكلامه المعمول الطافح بالأكاذيب والأضاليل : " أخشاه ! إطمئنني .. لا تقلقي بإذن الله لن أدعك تعانيين من غياب الأسطة صادق .. حاولي فقط تدبير قليل من النقود .. سلّم شملكما خلال بضعة أيام بإذن الله .. اعتمدي علي .. يكفي قليل من الصبر ؛ وستفرج الغمة ويذول الضيق .. ما عليك سوى أن تدبري لي بعض النقود .. "

تبّاً لك يا مينه زل .. يا دنيء ! كأنه يوم ؛ ما إن يدخل بيتاً ؛ حتى يصيبه الخراب . لطالما رفعنا عنه التقارير : " إحذروا هذا الشخص فهو موضع الشك والريبة ! ليس مستقيماً في سلوكه وتصرفاته " لكن الرفاق لم يأخذوا التحذير في الحسبان : " إننا مطلعون على كل شيء ، لكن الحزب بحاجة أيضاً إلى أشخاص مثله "

إلهي ليت العقل يجد أنه ؛ فتطرد تلك السائل . عهدي بآته إنها واعية . هيا يا أنه ، كحلتك وجملتك ، لا تستحي وخاطبيه : " أما تستحي أيها الرجل الضخم ؛ من أين أجلب للنقود ؟ لو حقاً متعاطفاً معنا و أخاً طيباً ! أهكذا كنت تعينني ؟ ! لقد رافقت صادق وأصدقائه ؛ فتقلت أعبأهم هكذا .. ودفع الجميع الضريبة الباهظة ، بينما نقلت دوماً وتنفّر ج .. ثرعى مع الخرفان وتاكل مع

الذئاب ! إذا كان صانق رجلاً؛ فأمره بيده هو... هيا إغرب عن وجهي أنها القبيح المنحوس الوجه..

بغثة انتفضت على صوت اصطفاق الباب، حيث دخل بضعة من الشرطة الغرفة لاهئين، وأمسكوا برجليك ويديك وحملوك وجرجروك كجثة، وكلما كانت ترتخي أياديهم؛ كان جسمك ينشطح بالأرض، فكانوا يركلونك ويسحبونك سحباً... حتى الوصول إلى ممرٍ دهليز مظلم... حيث تنتظر للكلاب ، ففي الدهليز كان يتردد صوت كلبين يشي بالشراسة كأنما جوعاً فترة ، حيث كان صوتهما يزداد ضراوة؛ كلما قُربوك منهما ... فكنت تفقد صوابك: " إنهم جانون بتقديمي فريسة سهلة لهما... سيمزقاني إرباً إرباً!"

- هل ستتكلم أم لا؟

" بعد كل هذا الإمتهان للكرامة؛ (كلا) إتيك أن تتطرق بكلمة ؛ حتى لو مت ، فالموت موت ؛ فلماذا اللبط والرفض؟!"

همس أحدهم في أذنك:

- لا عليك، سأذهب إلى البيك وأقول له: إنه تعبان جداً.. سيرتاح قليلاً؛ ثم سيروح لنا بكل شيء من تلقاء ذاته.

لقد تبين لك بأننا مجرد خدعة مسجلة ؛ فليس ثمة أي كلب، والأمر كله تمثيل في تمثيل! فليطمئن بالك بعد الآن . فقد صلبت شوكتك ، واكتشفت الأعيبهم ؛ فأننا اصم أبكم ولا أعرف أي شيء"

فجأة تنأى إلى مسمك صوت صافرة في الممر، ثم حملوك بسرعة وطرحوك بكل عنف على أرض الغرفة. وبعد مضي بضعة دقائق ، شعرت بتقلص في أوصالك ، وكنت تشعر بأنك معزى ، وكانت أوصالك ترتعد أحياناً، مع ومضات وجع حاد يخرق قلبك و...دون أن تعلم كم مضى من الوقت ، انتفضت من النوم كمخبول ، وتمتعت في الظلام ، فلم ترَ أي حصان! إذن. كان ذلك حلماً ، حيث شاهدت أمام بيتكم مهراً مناسب العرف ، أغر الجبهة ،

مسريلاً بالغربة ، يحك خطمه بيابكم ملولاً . وإذا باتّه تهرع وقد إنحنّت قامتها
الفارعة قليلاً وتعثمت مرأة وجهها قليلاً ، وفطحت الباب :

- وَيْ وَيْ لهذا المهر ! ياترى مهر من في هذا الليل...؟!

وانتهرته باستياء ، فانتصبت أذناه و هزّ ذيله ، وانطلق يعدو حتّى طرف الزقاق
، حيث توقف ، وأرسل نظرة طافحة بالغربة وراءه ، وما لبث أن عاد ليقف أمام
بابكم مثلما فعل من قبل ؛ فنهزته أنّه ساخطة:

- إغرب عنا ، أكلت رأسك صاحبك ! لم ينقصنا إلا هذا ! كأنه جدي (ريبطة)!

فاجتاحك حق شديد ، وتمنيت لو يعود مرة أخرى ، فتهرع إليه وتمسك به .
وفجأة جفلت إثر اصطفاق باب الغرفة . كنت مصدوعاً و دائخاً ، وعيناك شبه
شائمتين . كان الرجل الأحمر وبضعة أوباش واقفين حواليك . لقد ركلك الحقيّر
بمقدمة حذانه بأشمنزاز وكأنه تحاشى اتساخ حذانه:

- ها...كك صادق ! ما قولك الآن ؟ أترك تعقلت وثبت إلى رشدك.. أم ...؟

كنت معتمصماً بالصمت بحيث ظننت نفسك فاقد القدرة على النطق.

- خلف ! منخصص اليوم للتمتع ؛ فاذهب واجلب زوجته العاهرة . ستصطفون
جميعاً وتغتصبونها واحداً تلو الآخر.

و حالما تفوه بهذه الجمل ؛ انفكت عقدة لسانك كأخرس حقيقي إثر صدمة هائلة:

- لطفاً ضعوني أيضاً في الصف !

لما رفع صادق رأسه كان قد بلغ أمام محل قادر الحلاق ، فلوح بيده محيياً إياه ،
ثم عاد أدراجه إلى البيت ممرعاً.

- لا، لا، لماذا أتبرأ منه؟! لماذا أحرمه من أبوتي ..؟ أترك تجهل كونه من أبناء
شعب محكوم ؟! ثم أترك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن
يصيروا ببشمر؟! ليت لساني يُبَرِّق قبل النطق بتلك العبارة... لا أحد يقطع على
نفسه سبيل الخير ، وإلا فإن إبني متعلق جداً بدراسته... لعلّ و عسى...

(٣)

حين يرى الإنسان مكاناً ما لأول مرة ؛ يتمعن فيه بدقة، حيث تسترعي أصغر الأشياء إنتباهه، ثم تظل معالم ذلك المكان مسطورة على صفحات ذاكرته لفترة طويلة. أما إذا ما تواسجت نكري بهيجة أو مريرة مع مناظر ذلك المكان ومعالمه؛ فربما لن تنمحي أبداً من ذاكرته.

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...

- ألم يحن وقت الصلاة يا خال عزيز؟

- ليس بعد. حين يصل الظل أعلى غصن من شجرة التوت ؛ يحين موعد صلاة الظهر.

حينما ينصب الليل خيمته ؛ يبدو الجبلان الواقعان على جانبي القرية كأنهما يتلاحمان ويحتضنانهما ليحميانهما من برائن الجائرين...لأحد يعرف أعمار الجبال ؛ فهي قديمة جداً، قد تكون أخلد الشهود على المآسي والفجائع والملاحم

البطولية في الوقت نفسه... ثمّة أحجار عملاقة غارزة مخالباها في صدور الجبال، عجزت حتى العواصف والأعاصير والأمطار والسيول، بل حتى القنابل أن تززعها وتطوّح بها بعيداً عن أحضان سفوح الجبال! كانت هناك أجمة من أشجار البلوط القصيرة المشدبة بالفؤوس منتصبة أمامه، وكان بعضها قد تعرّض لعنف ضربات الفؤوس؛ لتستحيل وقوداً للمدافئ، أو فحماً منعشاً لحركة البيع والشراء في إحدى الأسواق لبضع ساعات. وإذا ما قصدت القرية بعد الغروب؛ فليس هناك ما يذكّر سوى السبيل سوى نباح كلب أو ضوء خافت مرتعش لتقديّل ما. أمّا إذا كان الضباب مسربلاً القرية والجوّ بارداً؛ فإن الأدخنة المتصاعدة من مداخن المدافئ الخشبية تكثف الضباب.

على هذا الجانب في قممات الجبل مقبرة على إحدى الروابي تثير في نفس العابر ألف تخيل بلاقرار. أمّا إذا ألقيت نظرة من مستوى أفق هذا الجانب؛ فتبدو القرية لك كتلاً متشابكة بعشوائية وفوضى، بل أشبه ما تكون بأطلال قلعة قديمة، حيث يبدو فيها كلّ شيء ساكناً خامداً وهامداً. وقبل أن تبلغ القرية تصادف عند مشارفها نبعاً شحيح الماء، يتصرّ عليك أن تشرب جرعة من مائه أو تبلل وجهك لكثرة الطحالب فيه، وإذا ما غمرت فيه يديك؛ سترى مئات الدعاميص ذات الأذنان الهزازة تهرع لائذة بالطحالب، والضفادع المقززة تتعافز من بين قدميك لائذة بالقرار.

وهناك في أسفل القرية جدول شتوي الجريان. فإذا كان الشتاء مطيراً؛ فالماء يجري فيه عدة أشهر، ثم يجف، حيث تنتصب على ضفتيه شجيرات برية لاجدوى منها كاليتامي سرعان ما يبيّسها القيط، أمّا المقاومة منها فتقتضي عليها الأبقار والماعز وغيرها... وعلى مدار السنة لا يخلو الجدول من جثة حمار أو بغل أو عجل أو بقرة، حيث يرى المرء زمرة من الكلاب تتحلّقها بعد الشبع حتى النخمة أو تدسّ رؤوسها فيها وذبولها تتحرك بين سيقانها...

وابتداءً من نهاية سفح الجبل ثمّة سلسلة من الربوات الصغيرة تتحدر كالموجات حتى مشارف القرية، وما بينها هنا وهناك مساحات مستوية تتخلّلها حقول صغيرة للخضراوات، وثمّة دريبات تبدو كالخيوط تتحدر وتبعد من

وعلى سفوح هذه الربوات. . وحين ينال التعب منك وتجلس على سفح إحدى تلك الربوات وتشعل سيجارة ، ثم تتطلع إلى السماء؛ فغالبا ما ترى عيناك نسرا يشق عنان السماء، أو باشقا متعلقا بالقضاء، حيث يعلو ويدور دورات من حين لآخر، و تتسع دوراته ؛ كلما حلق أعلى ، ثم يواصل الارتفاع حتى يستحيل مجرد نقطة صغيرة على صدر السماء، لكنه يطبق جناحيه فجأة ويهوي بسرعة هائلة منقضا على إحدى القمم ؛ فتحن كأنما هنالك قوة خفية تجتذبه إلى الأسفل. ثم نراه سرعان ما يعود محلقا إلى العلياء ، وقد علق ريش أو وبر أو جلد بمخالبه.

وبعد ارتواء عينيك من التطلع إلى السماء، وبعد أن تنهي تدخين سيجارتك، وتهتم بالنهوض لمواصلة السير، تشعر بانقباض قلبك ؛ حيث يضيق الوادي معسرا تنفسك ، وتشعر بمجال تفكيرك يضيق أيضا ؛ فتتمنى بكل كيائك أن تستحيل باشقا ، وتحلق بكل قواك في أعالي السماء نائيا عن هذا الوادي المجذب ، لكننا القرية تتاديك وتهب عليك رائحة العمران رأسك. وهل ثمة رائحة أزكى من رائحة العمران؟! إن سحر العمران يجتذب المرء من بعيد .لقد كان الماء والعمران متلازمين دوما ، رغم شحة مياه هذه القرية...

لكي تصل وسط القرية؛ لابد من المرور بالنبع الذي تقصده النسوة والفتيات اللواتي يتقاطرن سرعات من الأزقة للقرود بالماء. وهناك تتصدع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وفرقة الصفائح والبراميل والشتائم وقهقهات الفتيات ومحادثات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة، وأدعية ولعنات الزوجات الحائقات على أزواجهن..

- لبيئله الله بالعمى!

- شل لسانك

- بنت فاطمة المفناجة أراقت ماء وجهها!

- شيق فرجها خملف عقلها!

- هنيئا لك يا(مينا) الحولاء

- يا (ملكيتة) تماديت في معاشره(أحول)

- عين الحسود تبلى بالعمى!
- ليتك صرت زوجة أخى
- بالله عليكِ إقصحن لي المجال فانا مستعجلة..
- إنها محقة فتورها راجع !
- ليتني كنت مثلها!
- أعمالك الله ! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأنني سأغتسل به من الجنابات؟!
- وأنا أعلل نفسي أن لي زوجاً، ليت الحمى الصفراء فتكت بجسمه!
- و ماذا بقي منك يا شمطاء؟!

واعجباه! إن العمر والزمن يمضيان من حيث لاتشعر بهما ، وكل تلك المشاهد تتراءى بجلاء لناظري لحذ الآن... ليلاً كانت الرياح تندم بصفيرها بين أغصان وفروع الأشجار والشجيرات، وأخذت زخات المطر تساقط ، فنفتت رائحة الثرى المتبلل إلى رأسي، فغمرتني بنشوة تضاهي النشوة التي تبعثها رائحة حمراء شهوانية مغناجة ؛ فتبين لي ليلتذاك أن تينك الراحنتين ، رائحة الثرى المندى بالمطر حديثاً و رائحة المرأة ، أزليتان لن تبليا أبداً. ثم ماذا عن كل تلك الهمسات والغمغات والهمهمات الصادرة عن أحضان الليل؟! ياها! ما هو صوت الليل؟ يا له من صوت عسير الوصف ، بل لايمكن وصفه بتاتاً، فهو يحتضن آلاف الهواجس والوساوس والإرتعاشات والعذابات والرغبات والغربة والألفة والكركرات والقهقهات والخوف والأمال والأهات والأنات والزفرات والإعياء والإرتياح والقلق والطمانينة وثغاء الحيوانات الجبلية وزقزقة وهديل الطيور الضالة الباحثة عن أعشاشها...والقمم والسفوح والسهول والأصوات والأصداء يحتضنها الليل كلها ويهددها كأعر بنيه...لاعتقد بوجود ملاذ للأمرار كمثّل الليل.

وليتئذ كنا أنا وأسرة ميرزا اسماعيل إضافة أخرى إلى أسرار الليل!
مثل شبح متعب القدمين إستوقفني باب عتيق لحوش ذي سياج منخفض ، ورحت أختلس النظر والسمع هنا وهناك ؛ لطني أرى وأسمع حركة ، ضوءاً

..صوتا... لكنني لم أسمع سوى نخير وخنين الأبقار المحلوبة حديثاً وهي تجتر علفها. وبعدها تناهت أزيز زيت على النار إلى سمعي ، ولايستطيع الجائع مقاومة رائحة زيت الفلي ، ومن حسن الحظ أن القرويين الكرد يتناولون العشاء متأخرين ، بل يرحبون بأيّ عابر سبيل يطرق بابهم ، فكيف الحال مع الضيف؟ فتشجعت وطرقت الباب :

- يا أهل الدار!

فبدأ طيف من شق الباب العلوي متسائلاً بصوت رفيق:

- من ؟

- أنا.. يا أختاه..! تستقبلون الضيف؟

- تفضل يا أخ ..الضيف حبيب الله.

ترينت قليلاً قبل أن تقول بصوت أصفى وأرق:

- مهلا حتى آتي بفاتوس ؛ فالحوش مظلم

- لا تتعبى نفسك ؛ فمعي مصباح يدوي

وارتفعت السلم الخشبي المتداعي بكامل عتكي وعتادي ويندقتي. ومايزال

صرير السلم يتردد في تلايف ذاكرتي. لقد كنت منهمك القوى ، وكانت ثيابي

مبتلة قليلاً.

- منذ زمن وأنا أقول لرجلي : " أصلح هذا السلم الموروث ببضعة مسامير يا

ميرزا"

وفتحت الباب:

- تفضل يا أخ ..تفضل بالدخول

ودخلت الغرفة والشعور بالخجل يخشاني :

- السلام عليكم

نهض عن الخوان رجل متوسط العمر ، ضامر الوجه ،وسيع العينين ومعقوف

الأنف:

- وعليكم السلام.. أهلا وسهلاً..تفضل تفضل..

فوضعت بندقيتي جانبا ، وأخرجت مندولي من جيبي ومسحتها، ثم جلست قرب الخوان، وقد أسالت رانحة (اللبنية) لعابي...

- أهلا ومرحبا بك

إبتلعت لعابي :

- سلمك الله عشت

- هيا يا صبا هاتي الطعام

كانت صبا امرأة تفيض بالحيوية. كان شعرها مخضبا بالحناء. وكانت ضامرة الخدين قليلا وذات عينين مائلتين. فخرجت ، ثم عادت بعد هنيهات جالبة صحناً من اللبنيّة الساخنة المزينة وبصلة على صينية، ووضعتها أمامي وقالت:

- تفضل

- والآن يا صبا ضعي حزمة حطب في المدفأة

وبعد تناول العشاء وشرب الشاي ، التمسيت الدفء والراحة، وجفت ثيابي ، وأوشكت على القول: " من فضلكم أعطوني بطانية.. سأذهب لأنام في المسجد" فسبقني ميرزا كنهه فطن إلى مايدور في خلدي:

- إيه..يا أخانا البيشمرکه ! أراك تتعجل الإنصراف...مازال الوقت مبكراً. إبق لنردش قليلا ونفرّج عن قلوبنا.

لم تكن لدي طاقة للكلام ؛ فلنت بالصمت ، ورددت في سرّي: " حان أن تدفع الثمن ! مادمت قد تناولت لقمة طعام ؛ وجب عليك أن تدفع الضريبة! آفة دردشة سلمك الله؟! ولكن لم لا؟! فلينصب علي الليلة إضطهاد هذا الرجل ، ولأستمع إليه ، ثم ليس شرطاً أن أصغي إليه بجد ، فلولا هذه العلاقات الإجتماعية الباهتة ؛ لضاق الإنسان ذرعاً بوجوده...ومن المحاسن أن تبعث هذه العلاقات الواهية أحيانا بهجة خرقاء في نفس الإنسان ، وتمشّطه أو ينشغل بها عن نفسه ، أو يفرض وحدته عنوة على شخص آخر "

- هيا يا امرأة صبي لنا الشاي ثانية

ثم وضع استكان شاي أمامي وآخر لنفسه. خبط شايه ؛ فاستثارني رنين احتكاك
ملعقته بالإستكان... وإذا بصوت غليظ أجش يتناهي من الخارج :

- ميرزا هل أنت في البيت؟

- هلمّي يا امرأة شوفي من هو؟

عيسيت صبا وغمغمت متنمرة وأجابت بهدوء:

- ومن يكون غير (اللاخليفة)؟!

وخرجت من الغرفة لتستقبله:

- أهو أنت يا سيّد خليفة؟! تفضل أدخل.. ميرزا موجود

فدخل الغرفة. رجل بطين ، عريض اللحية. و سدى الخّ عليه ميرزا ليتصنّدر
المجلس ؛ فقد قرفص قرب باب الغرفة:

- هذا غير مناسب يا خليفة ؛ فكن رجلاً طينياً وتصنّدر المجلس

- سلمك الله يا ميرزا لا بأس ، ولكن عيل صبري ؛ فقد حان وقت عودة القافلة،

ولكن لاأثر لهم... أخشى أن.....فماذا تفعل في رأيك؟

لقى ميرزا عليّ نظرة ، وهو يفكر ، ثم قال:

- من يقود القافلة؟

- شيخه ابن كاكه شيخ

- ها... إنه رجلك المصطفى ؛ قسماً بالله يا خليفة تأكد بأن قلقة يقودها جاهل

آخرق مثله ؛ لايسطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء المسيل ، بل تستط لا

في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها! حتى الآن لم

تقيموا لرأينا أي وزن... لقد كنا بمثابة شهود لأكثر... لأنكم لاتتذكروننا إلا إذا

حاقّت بكم الفانيات...والآن ليذهب المتنعم بخيرات القافلة للبحث عنها...فمنذ أن

وجدت كانت خيراتها من نصيبكم...أما نحن فكنا مجرد خدم منبوزين نرّمكم

جاحظي العيون ، لا ناقة لنا ولا جمل...زرعنا الكثير ولم نحصد غير الشوك!

فإن كان بدافع الشهامة ؛ فكفي ، وإن كان بدافع الغباء فكفي أيضاً...!

وإذا بصوت والدي يرنّ في ذاكرتي: " لقد ساهمنا بإبني بنصيبنا في القافلة ؛

فعمتك أحد شهداء القافلة البارزين...من ذا لا يترحم على (عزير دوغري) ولا

يذكره بالخير؛ كلما ورد ذكره؟! " ولو كنت أحببه : " إن مافعله يخصته هو ،
كفاك تعاش على حساب الموتى ، وتنبت الدفاتر العتيقة ؛ فذلك من علامات
الإفلاس ! فلا أحد يعبر النهر بمسباحة سواء ! ألف (لكن) لمن دس هذه
الأسطوانة في أدمغتك " لو كنت أحبته هكذا ؛ لخاصمني ، وردد : " خضت
ألف محنة لأرثي هذا الولد وإذا به يجازيني هكذا! "

نهض خليفه ومضى مستاء . ارتشف ميرزا شايه ، ودفع الإستكان نحو صبا :
- صبي لنا الشاي من جديد يا امرأة

ألقي علي نظرة وشهق شهقة عميقة ثم قال :

- أتعرف يا أختانا البيشمرکه أن البيشمرگاني (العمل القذاني) عبادة خالصة بلا
رياء؟!

تساءلت على مضض :

- كيف؟

تتحنق قليلا وتابع كلامه :

- مثلما تكون العبادة وشيخة وتقى بين العبد والله وعشقا خالصا بلا رياء ، تكون
القذائية عشقا نزيها زكيا للأرض والحرية والشعب. إن البيشمرکه مدلل الناس
والأرض ؛ فالأرض بلا بيشمرکه مثل بسمان بلا مور ! ويل للناس والأرض
التي تخلو من البيشمرکه! البيشمرکه هو من يريق دمه عند أقدام الناس
والأرض ، ويستحيل ورده يفوح شذاها دوما ، دون انتظار جزاء أو ثناء .

كنت منقبض النفس وفي غاية الضجر ؛ وقد عجزت حتى كلمات ميرزا
الشيقة أن تهزني ، أجل . بد " المطحنة في خيال ، والطخان في خيال آخر " لقد
شعرت أن كلماته وليدة ذهن محشو حشوا ، وليست وليدة ذهن مفتوح مبتكر . وإذا
رفعت رأسي ، كانت عينا صبا السوداء ان العميقتان تحيطان علي ، كأنها تشفق
علي ، بينما كان ميرزا يبدو تواقا إلى الحديث ، فلبتسم لي واستأنف :
- فما رأيك يا صاح؟

- لا أدري ماذا أقول . فأنا أحسب نفسي بيشمرکه (قذائيا) ، وليت كل الناس
يقيمون البيشمرکه مثلك .

- لا تبال.. سيأتي ذلك اليوم...

- لكن يا عزيزي ميرزا يجب أن تكون البيشمرگايي (الفدائيّة) في إطار الثورة
والأ...

فقاطعني:

- أليست الثورة قائمة عندنا والحمد لله؟!

سكتت برهة ، ثم قلت:

- ولكن يا ميرزا العزيز ليس كل من حمل السلاح ببيشمرگه... سنقتني أن
أكثرنا فزاعات عليها البنانيق معلقة! إن البيشمرگه هو من أشعل الثورة العارمة
في ذاته أولاً. إن البيشمرگايي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبها؛ فالثورة
تغيير... تغيير في ميادين الحياة كلها... أما ما تحمد الله عليه فهو الإقتال... شبه
حركة مسلحة. صحيح إننا نخوض معرك بطوليّة ، ولكنّ إعلم بأننا نقاتل منذ أن
وجدنا، فإذا لم نحول هذا (القتال) إلى (ثورة)؛ سنظلّ على هذا الحال نقاتل ولا
نغير ولا نحقق شيئاً؛ لذا وجب علينا التفكير في أن نحول القتال إلى ثورة،
وقتلنا العادل قريب من الثورة ، لحسن الحظ، ويمكن بلوغ مرحلة الثورة؛ إذا
بدلنا الجهود.. وعندنا أناس ثوريّون ، لكنهم للأسف لم يتجمعوا ويتحدوا بعد
تحت خيمة ثورة... ويجب أن تتطبع حركتنا بطابع الكلاحيين، وأن نحذر من
البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة أن يمضوا شوطاً أو
شوطين ، ثم ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد
لهم!

بدا ميرزا وكأنه لم يفقه جيّداً ما طرحته ؛ فتأامب وقال:

- الله كريم!

والنفت إلى زوجته:

- يا امرأة هاتي البطانيّة الجديدة لأخيها؛ فهو يبدو متعباً وينوي الإنصراف.

لملمت نفسي وتكبت بندقيتي وتناولت البطانيّة، وحيثهم " تصبحون على
خير" واتخذت طريقي إلى المسجد... كان وبر البطانيّة الوثيرة تحت إبطي
يدغدغني.. وأنا أحدث نفسي: " إني أفهمك يا ميرزا.. أعرف مقصدك.. صحيح أن

البيشمر كايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في آية حماة أسنة نتمرغ! حماة نعج
باللصوص والأقاقين والمهرجين والمتطفلين والمشعوذين والمداهنين
والمقاولين والتافهين والمرائين والسياسيين التجار المحترفين ! أما ترى النيران
تحرق بنا من كل صوب ؛ إذا بقينا ماكثين في المستنقع ونغزونا الرائحة النتنة
شينا فشيناء، وإذا ما إخرقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعماً للنيران؟! فماذا
نفعل يا ميرزا؟ لا بد ، كما يقول الأستاذ محمد، أن نقذف النتانة في النار بأيدينا؛
لكي نمثلك أنفسنا تماماً.."

أفلتت لفظة ميرزا من فمي عفواً وتبعها صداها . تلفت يمنة ويسرة ، وحدثت
خطاي نحو المسجد، ولما إقتربت منه؛ صاح بي البيشمرکه الخفير:

- من القادم؟

- أنا ... بيشمرکه

واقتربت وحييته:

- طابت ليلتك

- طابت ليلتك

سلط علي نور مصباحه اليدوي:

- أهو أنت يا مستو؟ ووحذك؟

ثم تلفت إلى المسجد، حيث كان البيشمرکه مستلقين هنا وهناك، بعضهم نائم
يشخر، وبعضهم يغالبه النعاس ، ويتبادل البعض الآخر أحاديث ذات شجون.
ثمة كان أحدهم في الزاوية البعيدة يرفو معطفه المهلهل. كانت المدفأة الخشبية
مضطربة اللهب. فككت حزام عتادي و وضعت عليه بندقيتي، وتوسدت
معطفي ونشرت البطانية لأتغطي بها ، وإذا بشيء ما يسقط منها، ففتشت عنه
على نور الفانوس الخافت فوجدت صرة حمراء صغيرة معقودة ، تحسستها
بيدي ، بدت محتوية على نقود، فدمستها في جيب قميصي ، واضطجعت...

(٤)

طغى الكرب والضيق عليه في ذلك المساء، ولم تعد عنده الهمة لمتابعة فروض أطفاله وتحضير دروسهم وسرد الحكايات الحلوة لهم ؛ حتى يغلبهم النعاس ويناموا كمثل الأمامي الماضية. تناول علية مكاثره و شخاطنه ودخل غرفته ، حيث تمند على السرير ، ثم أشعل سيكارة ، وركز نظراته على السقف ، وراح دخان سيكارتته يتحلىز في فضاء الغرفة، ثم يتلاشى تدريجياً... وراح خياله مثل الدخان بشكل هالات لا تلبث أن تتبدد ...

- صدقني يا كاكه فرج ما بقلقتي هو انه مازال صبيًا ...

- حفظك الله ما هذا القول ؛ فهو رجل كامل ماشاء الله ! كيف يكون طفلاً من بلغ المرحلة الجامعية؟! هكذا نشأنا على عدم الثقة بأنفسنا. ثم تذكر يا أسطه صادق بأن البنين لا يكبرون في نظر الآباء والأمهات ، بل يظلون صغاراً حتى لو بلغوا عرش الملوك!

" أجل .. إنه محق ؛ يظل البنون صغاراً في نظر الآباء والأمهات ، ولكن ليس سواي يعلم بما آل إليه حال هذا الولد الفزق ، فقد عدا فريسة للحزن والقلق، واغتم جداً لعدم إكماله دراسته.. إن الحزن والقلق يهذان حتى الجبال وليس ابن

أدم فحسب ، بل يتركه متيئماً كبستان ظامي... لأعتقد أبداً بقدرته على تدبير وضعه؛ مادام لم يعيش الوضع هناك ، ولم يتعرف على الثورة والبيشمركة والفلاحين إلا عبر الكتب والمنشورات؛ فكيف سيدبر أمره الآن؟ فليكن مايكون بشرط أن يظل حياً؛ فهو شاب ، وليفعل مايشاء... فعلى الأقل سيخبر تجارب كثيرة... أواه ما أشد تعلقنا بالأولاد! انظر إلى آتة المكنزة كيف نحل جسمها والتصق جلدها بعظامها وترعد لون جبهة و غارت عيناها. كيف لا تتأثر وهي أم؟! المسكينة لاتجرو حتى على ذكر اسمه خوفاً منك؛ فلذا ينبغي أن تطيب خاطرها. إن الآباء والأمهات في هذه البلاد يحبون بعضهم البعض ؛ من أجل البنين والبنات ، وما إن ينجبوا طفلاً حتى ينسوا أنفسهم.. فعليه يجب ألا تكون فظ القلب كذاك النزق ، وبالأخص مع آتة.. أتعلم كم أنت مدين لهذه المرأة؟! انه لا يحصى . ما أكبر فضلها عليك! فضلاً عن أن أهلها يحسبونك في منزلة ابن لهم. صحيح أنهم تحججوا و تمنعوا في البداية ولوعوا قلبك كثيراً ، ولكن لا لوم عليهم ؛ فقد كنت رجلاً فقيراً وغريباً... أجل.. كنت ببشمركة بسيطاً، ولم يكن لآتة تنب في موقفهم ، بل وقفت إلى جنبك بكل ما في وسعها ، حذراً الاستعداد للهرب معك ، إلا أن لم يكن فعلاً يليق بالبيشمركة... جازى الله خيراً آل ميرزا حسن الذين تدخلوا ويمسروا الأمر... ياه! كأنما الأمر يحدث الآن ... فقد قصد ميرزا حسن بيت أهل آتة ؛ كي يستوضحهم الرد ، واستغرق ذلك أسبوعاً، ولكن يا له من أسبوع ثقيل! كان قلبك في قبضتك : " يكون .. لا يكون؟" وفي نهايته قدمت سيارة من المدينة، وتمنيت لو تهرع إليها كطفل ، لكنك خجلت ، أو الأصح توجست خشية الخيبة ؛ فقد سبق وأن بعثت إليهم أشخاصاً آخرين ، لكنهم عادوا والخيبة تسبقهم... كنت تخشى أن يحصل لميرزا حسن ما حصل لهم ؛ فينهار قصرى مالك وأمانيك . وطالما كنت تؤمل نفسك : " لا بأس إن لم يتحقق الآن ؛ بشرط ألا تتزوج هي وتنتظرني" وعندها أسرعت إلى الخالة (حلاو) واستعطفتها للذهاب وتستقصي ما إذا كان ميرزا حسن قد عاد بسيارة القرية، أم لا؟ فذهبت الخالة حلاو ولا أحد يتمنى لحظات انتظارك المقلق

على آخر من الجمر، وبعد فترة وجيزة عادت وهي تبتسم من بعيد... و حالما دخلت المجاز؛ نهضت وابتدتها مضطرباً:

- أبشري يا خالة

- فدتك خالتك بروحها مبروك

لم تدري كيف تتصرف من فرط غبطتك؛ إذ كنت تصبو إلى احتضان الخالة حلاو وشمها.. ولكنك تماكنت نفسك وسألت:

- إيه يا خالتي حدثيني بالتفاصيل، حسناً لم لم تحضر أمي؟

تطلعت إليك بؤء، فتحسست وجهها الطافح بالبشر:

- وما حاجتك لأهلك؟ ومن أكون أنا هنا؟ أمك لم تحضر؛ لإنشغالها بتحضير ثياب العروس. وغدا سنرجع أنا وميرزا حسن بسيارة البيكاب

- لماذا؟

- ألا تدري بأنني سأزفها إليك بنفسي؟ ستري آية عروس مزدانة سأزفها لولدي! سأعلمها خلال يومين فقط كل ملئطعلق بالحياة الزوجية مالم تتعلمه خلال عمرها... سأزف إليك عروساً مثقمة؛ بحيث تظل طول عمرك ترسل الرحمة إلى قبري.

كنت تكاد أن تطير فرحاً، وخرجت دون توديع الخالة حلاو، ووجدت القرية لاتسع فرحتك؛ فخرجت منها، و رحت تتمشي... وشعرت بأن تحقيق الأمل يمنع المرء الغيرة والرجولة مثل ما يمنحه السلاح للشبان المتحمسين؛ بحيث تغمر الثقة روح المرء ويشعر بقوة رجولته..

وفي مساء ذلك اليوم خولت ميرزا حسن وكيلاً لك لعقد قرانك، وقد بشرك بأنه قد دعا فرسان القرى المجاورة للحضور واستقبال العروس في يوم الإثنين المقبل... ولكن الوجوم استبد بك بدلاً عن الابتهاج، فقرأ ميرزا مايدور في خلدك وتساءل:

- بماذا تفكر؟ أفي مصاريف حفلة العرس؟ لا لوم عليك؛ فأنت ببشرمركه وشبه معدم، ولكن أعلم يا بني أن من عاداتنا وتقاليدينا أن تساهم القرية كلها في تدبير المصاريف، ليس إكراماً لك فحسب، بل هي التقاليد يا ولدي، ومادمت

بیشمرکه ؛ متفعل أكثر من المعتاد...ميساهم كل بيت حسب مقدوره في إعداد الطعام الذي سيتنولوه الحضور في مضيف القرية ؛ لذا يسوؤني أن تغتم وتحسب نفسك مدينا لنا ؛ إنما نفعل ذلك لأحد أبنائنا...قد يكون وجوهك لصدمتك بالخبر السعيد! غدا سأذهب والخالة حلاو، وفي عصر الإثنين المبارك الآتي سنعود جالبين العروس بإن شاء الله...

ثم حلّ الإثنين الموعود، وقد استعدّ الجميع بكامل زينتهم كباراً وصغاراً ، شباناً وشابات ، رجالاً ونساء... كانت رائحة الثمن المطبوخ واللحم المقلي والحطب المحروق حتى الرطب تتصاعد من مداخن مواقد أهالي القرية تسكر المرء وتشهد على سخاء أولئك الناس الطيبين . كان الشتاء يودّع آخر أيامه، وكانت الأرض ريانة والسماء صافية..وكان رأسا صف المديكين والمديكات لا يحصرهما النظر . لقد كان اليوم يوم العشاق والعاشقات وهمساتهم وغمزاتهم ، وكانت هلاهل النسوة الجهيرة وصيحات الراقصين ورنين الحلي ورجرجة النهود والعرق الناضح من خدود الفتيات ، وأصوات العيارات النارية المنطلقة من البنادق والمسمعات ..كل ذلك كان يثير الطمأنينة في كيانك ، ولم تقف ساكناً فدبكت فترة ، لكن أترابك سرعان ما أخرجوك من الديكة : " كاكه صادق يجب ألا تتعب نفسك" و" إستبق قواك لليل!" و" أخر دبكتك لعروسك في الليل!" وطبعاً كنت تتعنى ذلك من الله ؛ فصعدت مع (كاكه رش) فوق سطح المسجد ، حيث كانت عيناك ترقبان الطريق ، وعندها قال كاكه رش:

- عزيزي دوغري حين تدخل الليلة على عروسك لاتهمج عليها كالكردي الذي لم ير اللين في عمره! فقد تترك ليلة الدخلة أثارها سلباً أو إيجاباً على مدى الحياة الزوجية؛ لذا على العريس أن يتعامل بهدوء وروية مع عروسه وبزيل خجلها ويجنبها إليه...واعلم حين تكونان في الحجلة وحدكما ، ستكون هناك جمهرة من الفتيّة والشبان أمام بابها يتصايحون : " هيا هيا ألم تنته؟! عجل! ما الخطب؟!" وغيرها من الترهات. لأن فض بكاره العروس بمرعة يعد علامة فارقة للرجولة حسب العقليّة العشائرية المتخلفة ! وطبعاً يتجمهر بعضهم أمام الباب ؛ لكي يطلق الأعيرة النارية عند خروج العريس ، ثم يتفرقون ، وهنا

يمكنك أن تخدعهم ؛ فتخرج في الوقت المناسب ؛ لكي يطلقوا أعيرتهم وينصرفوا ، فتعود إلى عروصك.

ولما رفعت رأسك متطلعا إلى مشارف القرية ؛ إذا بالفرسان يسارعون لاستقبال موكب العروس ، فنظرت بمنظارك و رأيت العروس تنزل من السيارة، وكان نقابها الكحلي يبرق من بعيد. وأركبوا العروس على فرس يمسك (لاله حمه) عناتها ويمسك (صالحوك) و(أحمد جاو جوان) بركابيهما، وحملوا جوادين آخرين بأغراض العروس، وركبت الخالة حلاو أحدهما، وسار الموكب الهوينى، ومضى الفرسان المتحلقون يبدون أفانين فروسيتهن، بينما كان الشبان ذوو البنادق والمسدسات من الصاعدين على سطوح بيوت القرية ينتظرون الطلقة الأولى لاستقبال الموكب لينخرطوا في إطلاق العيارات النارية. وقد ناولك أحدهم قصبه طويلة لتضرب بها عصاية رأس العروس عند دخولها؛ لتفرض هيبتك وهيمنتك عليها حسب التقاليد المتوارثة! وكان بضعة آخرين يحملون أكياسا ملوها الجكليت والحامض حلو والزبيب والحيتة المشوية لنثرها على العروس ؛ تفاولا بمقدمها الميمون حسب التقاليد. وحالما أطلق أحدهم الطلقة الأولى ؛ تعالى أزيز الرصاص من كل صوب ، والرجل الرجل هو كل من يطلق عددا أكبر من الطلقات ؛ برهانا على إخلاصه للعريس والعروس ، ولكي يبتهج قلب العروس : " كل هذا الفرح من أجلي....!" ثم وصلت العروس قرب البيت ، لكنها آيت أن ترتجل: " لن أنزل!" ففكرت : " ألم تخبرني الخالة حلاو بأنها سترزف إلي عروسا متفهة مطواعة؛ فأترحم عليها مادمت حيا؟!" ولم يكن الحشد يتوقع موقفها هذا، وكاد البعض أن يهين الدليلة خالة حلاو، والتي سارعت إلى حل المشكلة: " ترتجلي يا ابنة الكرام... فتعجبت : " لن أترجل ؛ حتى تعطوا بخشيشا جيدا لمرافقي فرسي و لي أيضا" وسرعان ما استجابوا لطلب العروس ، ثم قالت إحدى النسوة ضاحكة مازحة : " لقد نفذنا طلبك الخاص بالمرافقين ، أما بخشيشك فهو الثور الأحمر!" وقد فهمت لاحقا أن المقصود ب (الثور الأحمر) هو العريس !

مع أذان العشاء أدخلوك على العروس، فاتفردت بها في الحجرة ، حيث كانت رائحة البخور المحترق والقرنفل وحناء يديها وقدميها وعيناها المكحلان تبعث في جوارحك النشوة.. وإذا بهم يصيحون بعد فترة وجيزة وينادونك متسائلين:
- ألم تنقه يا صادق؟!

فانتفضت آتة والتصقت بك باستحياء ، وهمت:
- ويلاه! ما هذا اللغط؟! لقد أفتضحنا!

- هيا عجل يا ولد... ما الخطب؟! لو كانت ربيبة عدوٍ لإحتلتها منذ وقت طويل!
وعندها سارعت بالخروج إليهم ، فأطلق كل واحد منهم إطلاقته وصافحوك ، وسرعان ما إنصرفوا...

لم تمض سنة واحدة على زواجك حتى ارتأيت أن تهجر السلاح ؛ إذ شملت في جو الحركة رائحة شقاق وانشقاق ، فتركت البيشمركايتي ، لكن قسمك ظل راسخاً في بالك: " أقسم بالقرآن و بشرفي ألا أخون الكرد وكردستان " ثم إنك لم تصبح مقاولاً مثل بعضهم ، بل لم تتمكن من تكوين بيت متواضع إلا بشق النفس... بالإقراض والعمل المرهق وإعانة الأقرباء.

ثم أشعلت سيكارة أخرى " ما أعرب عطف الأبناء والأمهات! كأنما ليس عندكم سوى مستو! لكن حتى لو كان لك ألف أين ؛ ثق أن لكل واحد منهم مكانته الخاصة..."

دخلت أنه العرفة، وجلست متمسكة على السرير الذي صرّ صريراً:
- لم أعهدك قاسي القلب هكذا يا رجل ؛ فمذ فترة طويلة لاتسأل عن ولدنا، أو تحاول تقصي أخباره! فهو لم يتر ذيل حمار الإمام الويس ؛ بل حري بك أن تتفخر به...

هم .. م... إنه عنيد .. عنيد جداً.. وأنا أعرف به منك يا امرأة، ولا استبعد إمتناعه عن مخاطبتي ؛ إذا ذهبت إليه!

- لكنه مسكين يا رجل.. يشعر بالجفاء والوحدة ويعاني من الحرج والخجل بين رفاقه...

وانقلب صادق على جنبه، فزحفت آتة إلى جنبه على السرير، واستنار سرير
السرير رغبتهما... ثم كركر صادق؛ فمألتة آتة:

- على مَ تضحك؟!

- أما تذكرين ليلة زفتك إليّ في (باخه كون) في إحدى غرف بيت الشيخ كريم ،
حيث تجمهر الفتية والشباب أمام الباب وهم يصيحون : " ما الخطب؟! لو كانت
ربينة للعدو ؛ لإحتلتها منذ وقت طويل!"

فضحكا ، ثم قالت آتة:

- حسناً.. إكراً ما لنذكرى تلك الليلة ؛ زُرْ ابنتنا مستو.

تطلع في وجهها بنظرات طافحة بالرضا والرفقة، وهو بحث نفسه : " والله
أعلم أيّ ولد مغرور هو! قد يشيح بوجهه عني حتى لو زرتة ، لكنما مهما يكن ؛
فهو من دمي ولحمي ، وأنا أحبه ، سأمارع غداً بالذهاب إليه.."

(٥)

حين حلّ الصباح ، سارعتُ بإعادة البطانية . كانت زوجة ميرزا تحلب بقرة،
ورأيت قطرات الحليب تنزل على ساعديها المكتنزين :

- تفضلنّ كاكه إصعدنّ إلى فوق سأجيء بسرعة

لم أحبذ الصعود ، لكنني اضطررت إلى ذلك لإنشغالها وصرّة النقود... وبعد
هنيهات صعدت:

- أهلاً سهلاً بك على الرحب والسعة

- أين ميرزا؟

- ذهب لإلحاق الماعز بالراعي ، قد يعود بعد قليل

- عذراً يا أختاه.. كانت هذه الصرّة في ثيابا بطانيتكم ، وقد هممت بإعادتها إليكم
في الليلة البارحة، لكنما الوقت كان متأخراً ؛ فأرجو المعذرة على تأخري...
فشحب وجهها؛ حالما وقع نظرها على الصرّة ولطمت خديها:

- الويل لي! ليقطعوا ضفائري ،ماذا كان سيحصل لو لم تقع بيد ابن حلال
مثلك؟!

" البيشمرگاتي محبة خالصة بلا رياء"

- جزاك الله كل خير، ودام قلبك عامراً بالبشر؛ مثلما أبهجت قلبي ، ولبت
ميرزا كان هنا

" البيشمرگه مدلل الناس والأرض"

- أدام الله ظل البيشمرگه على رؤوسنا

- " البيشمرگه زهرة يفوح شذاها دوماً.."

تناولت الإفطار، وتابعت سبيلي " حمداً لله ما زلت بخير؛ لم أنتن ، ولم تغزني
رائحة النتانة بعد" وخرجت على مهل من القرية، وعلى المزبلة الواقعة عند
مشارفها، صادقتني دجاجة مع مرب كتاكيتها، وإذا بالكتاكيت تترأض نحو
أمتها التي نشرت جناحيها وتقنمت نحوي " حتى الدجاجة تذود عن فراخها"!
ومررت مشاهد عدة على شريط ذاكرتي ومنها عودتنا من تلك المعركة الطاحنة
، حيث كنت أشعر بأن الكثيرين من البيشمرگه يعانون من إنتكاسة مؤقتة
عابرة، ولكن من يعاني من إنتكاسة كهذه غالباً ما يشكل خطراً؛ فهو يصب جام
غضب انتكاسته على كل شيء، بل على أقرب الناس إليه، ولم يزل مشهد خالد
ملا صالح ماثلاً في ذاكرتي ، كيف حمل كتكوتاً على راحة يده أمام أنظار
الناس وراح يتوقده بغضب:

- سأكلك ؛ إذا لم تخبرني أين أمك!

كانت غالبية أهل القرية قد هجرت القرية ؛ إحترازاً من القصف المدفعي ،
واتخذوا العرازيل والمغاور وشقوق الصخور الكبيرة ملاذات لهم. كان (أميد)
من المناصرين للبيشمرگه، وقد فقد كل ما يملك ؛ حيث نهبوه وكنسوا غرفته
الوحيدة، وراح (آري) البيشمرگه الفتى المرح يطيب خاطره:

- لنذهب ونبحث في المقرات يا كاكه أميد

- ولماذا البحث في المقرات؟ وبعد ماذا؟

- لا بد أن نذهب معا! لعلك تتعرف على ممتلكاتك ، فلأنسيء بضيع لدى البيشمرگه.

- لنفرض ..وجدتها ، فالجو بارد وليس سوى البيشمرگه يستحقون البطانيات، ثم انهم جائعون ويحتاجون إلى الطعام...ولكن لماذا هذا النهب؟! فقد شاهدت الغرفة بأمر عينيك...لقد كنسوها وكأنها كانت فارغة من أي شيء! أهذا سلوك بيشمرگه، أم...؟!

ومع ذلك ألخ عليه أري ، واصطحبه إلى (سربست) بصفته شبه مسؤول منفذ ، وكنت حاضرا هناك:

كاكه سربست ! هذا كاكه أميد المعروف لجميعنا كصديق حميم لنا ...نقد حطموا باب غرفته وكنسوها كنسأ...

- و ما دخلي أنا ؟ كان المفروض ألا يتركها...

وحينها كان أميد قد نقل الخيز إلى البيشمرگه المتخنفين فوق قمة جبل.

- لا بأس يا كاكه سربست..دعه يبحث بين أمتعة وأغراض وأفرشة المقر - بيشمرگتي لم يأتوا بأي شيء.

وهنا تناول أميد طرف الحديث:

- لاسمح الله لم أقل أن بيشمرگتك لصوص..إذهب والى نظرة على غرفتي ، وتصور هل فعل حتى المغول بها ما فعلوا!

فرغ سربست رأسه، حيث كان يلعب الكونكان (الورق) وانتفخت أوداجه:

- أ نسب الثورة؟! إغرب عن وجهي..

- كلا، إنما هذه البطانية التي جنابك تجلس عليها شتمة بحق الثورة، هذه الأوراق التي تلعب بها، هذا القلم الذي تسجل به (الطرقات)، هذا الكتاب الذي تسجل عليه (الطرقات) كلها مثلك تلوث اسم البيشمرگايي المقدس يا جناب الثور...ي!

عصفت ثورة غضب بكيان سربست ؛ فاحمر وجهه ، وانتفض واقفاً والأوراق بيده:

- أقول لك إذهب في سبيلك؛ وإلا سأقبض على روحك أو ترديني شهيداً!

ليلة قمره خلاية، أنسام غليلة، نفوح رائحة خريفة أسرة وثمة غيمات متفرقة تحجب ضياء القمر هنا وهناك مثل الرقع في ملابس الفقراء. تمنع مستو في ساعته على ضوء القمر، وخاطب نفسه: " بقيت لي ساعة ونصف من الخفارة، ولكن لن أوقظ (سامان) سأواصل الخفارة؛ فهو منهك من سفره، ثم أتمتع بهذه الليلة البديعة.."

كان مستو متكباً بندقيته وهو يتمشى رانحاً غادياً أمام المسجد. وكان النسيم يرقص أشجار القوغ في الطرف المقابل بين الفينة والفينة، وكانت الأوراق المتساقطة توشوش حولها، ثم تستكين ويركن معها كل شيء إلى السكون. وفجأة رجع عواء مديد بعيد هداة الصمت؛ فتوجس مستو خشية الشؤم: " عواء الكلاب نذير شؤم ونحس، ولقد جرت العادة عندنا أن يلقبوا الحذاء عند سماعه، ولا أفقه معنى ذلك! إنما يزعمون بأنه يبعد السوء عنهم! يا لها من من عادات عجيبة وغريبة شائعة عندنا، ومنها أنهم حين يجلبون جرواً ليحرس المنزل أو قطيع الغنم حين يكبر، فهم يقطعون أذنيه وقسماً من ذيله، ويطعمونه إياه زاعمين بأنه سيصير كلباً يقظاً وشرساً! بل ويمارسون ما يشبه ذلك مع الصبية والفتيان؛ فهم يعطون أحدهم قنبلة يدوية: إذهب واقتل فلاناً... أو فجرها في المكان الفلاني... ولا تنس أن تعيد حلقها وإلا لن نصدقك " وهكذا صارت (الحلقة) محكا للتصديق!

" سحقا لك يا (محمود) يا لقيط يا ابن الزنا! أية رذائل نشرت! كم إنسانا لوثت! كم شخصا دفعت إلى مستنقع الجريمة وكم طاهرا ألطخت سمعته؟! "

و محمود هذا رجل ذو قامة فارعة وبشرة حمراء وعينين زرقاوين شبهيتين بلوزتين، ولم أزل حتى اليوم أتذكر بعض كلامه: " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يذعن كلياً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب. هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل؛ نقتله، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس...! "

تَبَا لك يا ابن الحرام ! فقد جعلت من ذلك الهراء هراوة تهوي بها على رأس من تشاء التخلص منه، حيث كنت تتفرّس حواليك ؛ لتحدّد ضحاياك واحداً فواحداً، ثمّ تجلب احد السذج و " تقطع أذنيه" وتلقنه: " إستبدل هذه البندقية، إذهب وقل: يقول كاكه محمود : عندنا بندقية حديدية الأخمس ، أعطوني إياها. إنها هديتي لك..." ثمّ تربت على كتفه، وتستثيره في كلّ مرّة:

- لقد أفشى أسرار الحزب!

- أطلق الشنآنم..!

- له اتصالات مع أجهزة الحكومة!

- إنه خطر كبير!

- إنه مفرّق مشير للفتن !

- إنه يروّج أفكاراً سامية!

مرحى لك ولدهائك الخبيث يا كاكه محمود! ماذا تحسب الناس؟ هل أقيت نظرة على ما حواليك؟! أتعلم من هم هؤلاء الذين جمعتهم حولك؟! إنهم شبان سذج أغرار أو أخساء من معدنك الرديء ليس لهم أي وزن إجتماعي! سحقاً لك ولدهائك ؛ فهؤلاء وليس غيرهم يلائمون لؤمك ، ماداموا يسعون إلى تحقيق مآربهم بأيديهم وأسنانهم وآية وسيلة...إنهم كالقطار السريع! فحين يعجز المرء عن تكوين نفسه ؛ فهو يبحث عن أي منفذ ويفتش عن أي ممسك وبأية وسيلة : الإستغلال ، الإضطهاد ، الإجرام...لايهم...مادامت نزواتهم تمحق كل القيم وتشلّ ضمائرهم وتلجم أنسنتهم وتقتل نور الحقيقة في أعماقهم ، وإذا ما وندت الحقيقة أو ماتت ؛ فسيكون كل فعل مباحاً...ولكن يا محمود تفنّن أن هذا الوضع لن يدوم طويلاً؛ مهما لوئت من عقول و ضمائر، بل إنك تحفر قبرك بنفسك...فأنت برجوازي الطبع والفكر والعلوك ، والبرجوازيون لا يستطيعون أن يقطعوا في مسيرات تاريخ شعوبهم سوى شوط أو شوطين ، ثمّ ينحرفون عن سواء السبيل بسرعة (١٢٠ كم) في اللوفة : " باي باي..." ! فتماذ في تعكير المياه؛ لتبدو عميقة أمام أنظار الناس!

لقد باتت روحي ساهدة مؤرقة هذه الليلة يا محمود أفندي... لقد عصفت صورتك القبيحة بطمانيبتني وأقلقت راحتي ؛ فقررت ألا أوقظ أحدا من رفاقي ؛ وأن أحل محل جميعهم في نوبات الحراسة... إن روحي ساهدة وأنني تطفان وخيالي يتشبث بي... فحينما زارني أبي كان يرمق بندقيتي بحنو وأسى ؛ وبدا لي متحسرا على أيام شبابه الخوالي؛ " لا تغتم يا بني على عدم إكمال دراستك الجامعية ؛ فالمجتمع جامعة، وفي الثورة أبلغ الدروس..." إن روحي المؤرقة تأخذ بخناق يا محمود ، وعمر ابنتك المداينة وبشاشتك الخداعة قصير... فهما أحكمت وضع قناعك وتشبثت باعتقادك بأنه يديم جبروتك ؛ فأنت واهم ، مادام ثقة من يرون وجه الشرطي الكامن وراءه! ولنتك سمعت ما قصته أبي علي :

" ذات ليلة قريبة، كنت عائدا من محلي . كان الظلام دامسا، وكان المطر يهطل بغزارة، وكانت شأبيبه تنهمر كالخيوط الملهية على مصابيح الأعمدة الكهربائية. وذهب ريح باردة .. وإذا بي ألح شبحا على مبعده مني تحركه الريح وتدفعه دفعا ونفخ مقربا مني . كان الماء ينساب عليه ويرتفع مثل ريشة في مهب الريح ؛ ففرست فيه ؛ وإذا بي أرى الخالة (ميرم) جارتنا.. أم سيابند أما تتذكرها..؟! إقربت مني على مهل وامسكت بحزامي واستنشقت شهقة عميقة ونأتأت بشفتيها المرتجفتين: ولدي صادق.. أنتم آل دوعري (*) المعروفون وأنت رجل شهم تقول الحقيقة وتفعل الحق ؛ ولو على حساب قطع رقبتك.. أجيبني بصدق ؛ إن سألتك سؤالا؟ فأجبتها: طبعاً فليس عندي سوى الصدق يا خالة ميرم وأنت مفخرتنا، فتفضلي وماريني ، فسألتني : لاشك في أنك تعرف سيابند؟ فقسألت: أي سيابند؟ فتجهم وجهها، وبدا لي الوقع السيء، لتساولي ، والله وحده العالم كم شتمتني في سرها! : سيابند .. سيابند إبني .. سيابند الذي مات في عز شبابه؟!

- أجل .. أجل وكيف لا أعرفه؟!

- هل كان سيابند خائفا لثورة كرستان؟!

- كلا... ولماذا هذا السؤال؟!

- لاشيء.. هذا كل شئت أن أعرفه ، مع السلامة يا ولدي ...حالفك الخير .
واستسلمت لمهب الريح ، وراحت تغمغ وتهمهم كالملائكة عقلياً ومضت في حال
سبيلها وغابت في الزقاق المظلم...وأنت يا مستو هل تعرف شيئاً عن سيابند؟!
فحببت وجهي بيديّ واعتصرت جبينني قليلاً ، وهززت رأسي بمئة ويسرة .
وتناهى إليّ عواء الكلب من جديد " هذا الكلب اللعين يثير الريبة!" وسارعت
بقلب حذاء أحد البيشمرگه ، فغمزني بعض الراحة ، رغم عدم إيماني بذلك!
رجت طمأنينة ما هدوء الليل ، وهيجت كوامن غربته ، وراح الخيال المجنح
يطوف بي مدارس مدينتي البعيدة ، وأغمضت عيني ، وفنحتهما ؛ فسرت بين
جوانحي رعشة باردة...وأنا أتذكر معلمة مكتنزة الجسم ، سمراء ، خضراء
العينين ، ينسدل شعرها الطويل على كتفيها وعنقها ، ورخيمة الصوت :

- قم يا بني

- أ..نا...ست؟!

- أجل أنت ما اسمك؟

- رنج سيابند

- حسناً ماذا يشتغل أبوك؟

وإذا بوجه الصبي يكفهز ، وينكس رأسه ، وتغرورق عيناه بالدموع ، وتخنقه
العبرة . وبلغت إليه زملاؤه ويهتف أحدهم بنزق :

- ست ست أبوه قُتل ، كان خائناً!

لو جاء أبي لزيارتي مرة أخرى؛ سأقول له : قل لها يا أبي قل للخالة مريم : كلا
، لم يكن سيابند خائناً، كلا ، بل كان ببشمرگه تضطرم الثورة بين جوانحه.كان
مخلصاً.. قل للخالة مريم أن تتفخر به كل الإفتخار ؛ فقد إسشهد سيابند من أجل
الحق والحقيقة"

" البيشمرگابتي محبة خالصة بلارياء"

فيا أبي أفهموا رنج بأنه ليس ابن خائن ، وإنما ابن شهيد عظيم.

- مستو

إنقضت من سياحتي الخيالية

- نعم يا عزيزي هلكوت

- لماذا لم توقظني؟ فقد فانت نوبتي في الخفارة!

- لا عليك يا عزيزي ..إذهب واصل نومك ، أما أنا فلا أشعر بحاجة إلى النوم

، فحتي لو آويت إلى الفراش ، لن يراودني النوم؛ فإذهب و نم ...طابت ليلتك.

أذناي تطنان طنيناً غريباً ؛ فأسدّهما بسنّابتي بصورة لاشعورية ، وأردد مع

نفسي : " الموت على بالي..الموت على بالي..الموت على بالي.." فقد علمونا

في الطفولة أن نفعل هكذا؛ كلما طنت أذاننا، وكان يحدث أحياناً أن يسد الواحد

منا أذنيه في بحبوحة اللعب في زقاقنا، ويصيح : " الموت على بالي..الموت

على بالي..الموت على بالي.."

لقد إستفاقت روحي وتأرقفت ، وعصف القلق بهدوني ، وها هي الذكريات

تنزاحم على شاشة ذاكرتي ومخيلتي ؛ فها هو وجه هلكوت المرتبك وصوته

الهاديء يغزوان ذهني ومسمعي:

- لقد حذرته مراراً ولكن سدى: حذار حذار يا سيابند؛ لقد نصيوا لك شركاً

..سيؤذونك ...سيقتضون عليك ...سيقتلونك شرّ قتلة !

فكان يعلق على كلامي ضاحكاً:

- أفصى ما في الأمر انهم سيقتلونني ...أ تعرف يا كاكه هلكوت بأن الإنسان

حقيقة مقدّسة ومعقّدة يختبرها ويمتحنها الفعل، أمّا الموت فيصدر بحقها الحكم

الأخير؟!

- تعقل يا سيابند فأنت لاتعرفهم حق المعرفة بعد ؛ فالحلّ والربط بأيديهم...

- لآتهنم يا عزيزي هلكوت فكأكه محمود صديق قديم ؛ فهل يبلغ جحوده ولؤمه

إلى هذا الحد؟!

- أعلم يا سيابند أن (كاكه محمود) ك هذا محترف سياسة، ومن يحترف

السياسة؛ لا يكون صديقاً لأحد ؛ فهو ليس صديقاً إلا لمصلحته..!

- لكنني مطلع على الكثير من أسرارهم؛ وهو لم يوطد وضعه بعد..

- لوجه الله أنصحك فأقول لك جازماً بأن هذا السبب وحده كاف لموتك يا

سيابند!

- ومع ذلك لا تهتم يا كاكه هل كوت ؛ لاضير في ذلك فالمشاركة في الثورة ليست بخيانة، و الموت محك لكشف حقيقة الإنسان...
- لكن موتك هذا لن يكون الموت الذي تبتغيه .
- طبعاً سينكتمون عليه، سيشوهره وسيثيرون الشبهات حوله أليس كذلك؟!
- ليفعلوا ما يشاؤون ؛ فليس في مقدورهم تمرير ذلك سوى فترة وليس إلى الأبد .. فلكن حقيقة شمسها الكامنة في باطنها، ولا بد من أن يأتي يوم بزوغها وتلقي الأضواء عليها.

- مستو...!
- انتفضت والتفت فإذا به (حمو):
- اذهب و نم فأنت مرهق جداً
فذهبت ، حيث انعمست في (كيس النوم) وتكورت.... ثم صحت صباحاً على زقزقة العصافير على أغصان شجرة التوت التي تتوسط صحن المسجد. وتأملت جذعها الضخم المحفور عليه المزيد من الأسماء والتواريخ ...
ثم تجمنا و توزعنا على البيوت ، وكنت أشعر أن جسمي قد خف قليلاً ، لكنني كنت مصدوعاً و دانخاً إلى حد ما.

(٦)

نادراً ما كان محمود يظهر بين الناس ، ولم يكن يختلط بهم كثيراً، وحتى لو اختلط ؛ فكان قليل الكلام ؛ فاكسب بهذا الأسلوب هبة ما. كانت تحيط به شلة من الشبان الأحرار بعضهم سذج وبعضهم مراوون أحماء شأنهم شأن الظل طالما يرددون كالبغاوات تعاليم (الرفيق محمود) وينسبون إليه ما لا يخطر على البال من مناقب؛ بحيث يرفعونه إلى علياء الثريا! حتى بلغ الأمر حدًا لو صاح محمود نفسه : " لست مثلما تتصوروني وتصوروني" لما كان يصدق أحد! أجل... كان هناك (رفيق محمود) الأوحـد الذي من المحال أن يوجد صنوه... لقد كان هبة من الله إلينا!

- لقد كانوا مخلصين مضحين للکرد وكردستان أباً عن جد

- كان أبوه ييسر كنه صنديداً في ثورة الشيخ محمود؛ فسماه (محمود) تيمناً به!

- فعلاً إن أسرته (موقوفة) على الكرد وكردستان..

كان محمود يسكن غرفة صغيرة منزلة نوعاً... حيث يكون في الوضع الأفضل المحبذ له؛ فقد كان كثير المطالعة، فهو يقرأ الفلّ ؛ للفتنؤ بمصير الشعب الكردي! كان لغرفته بابان ، الأيسر مغلق دائماً ، لا يدخل ولا يخرج منه سواه و الرفيقة (بروانه)! ولها نافذة مطلّة على الغرب، وعلى أعلى الجدار المقابل للباب صور (ماركس) ، (أنجلز) و(لينين) معلقة وتحتها صورة (ماوتسي تونغ) ؛ إكراماً لخطر نوي الشأن! وما هو الآن يذرع الغرفة جينة وذهاباً ، ويحدث نفسه: " حسناً لقد أحرزت الكثير من النجاح حتى الآن يا محمود .. أمّا المطلوب فليس سوى ترسيخ الخوف في قلوبهم ؛ لكي تمسك بزمام المبادرة وتوجّه الدفة كيفما ترغب وتشاء ؛ وعندها سيذعنون لك وينصاعون لأوامرك تماماً مثلاً يتخاضل الحمل حين يقع نظره على الذئب وينهار أمام مشيته! فإياك أن تغض الطرف عن أحدهم! سيأكلونك ؛ لو فتحت عيونهم على الحقائق ، وإذا انفتحت عقدة السنّتهم ؛ سيفضحون خفاياك . إنّبه جيّداً لهؤلاء السفلة الذين يتحلّقونك ! عليك أن تطعمهم جيّداً ؛ لكي يزدادوا شراسة ؛ فلا يجرؤ أحد أن يتفوّه أيضاً بكلمة أمامهم..لقنهم كلمات وعبارات وجملًا بليغة، وعلمهم كيف يلفقون الأكاذيب المهيّولة دون أن يجرؤ أحد على أن يسعل أمامهم ويكذبهم! ومع ذلك لا ترخ العنان لهم كثيراً ! وإذا ما شئت الإستخفاف بأمريء ما وإثارة حقنه ؛ فرمّ شفتيك ثمّ فرجهما قليلا، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان من أقرب المقربين لك وتعرف أباءه وأجداده! أجل ؛ تظاهر بالشروء وانشغال عقلك والنصباب تفكيرك على مصير الأمة وتساءل : (أه! نسيت إسمك ، ماهو؟) هـ... إنّبه لهذا اللبؤث (لبير) أخ القعبه ؛ فهو يكاد أن ينسى منبته الوضيع...رؤعه ؛ بحيث لن يجرؤ مرة أخرى على رفع عينيه أمامك..أجل ؛ فلتأت ..فلتأت أخته (القعبه) ..لماذا لم تلت لحدّ الآن؟ ليس من المستبعد أن تكون الآن منطرحة تحت فحل آخر في ظلّ شجرة! يجب أن تلجمها لجماً ،

ولكن ذلك لا يجدي مع أمثالها... هذه اللعنة لاتخمد شهرتها؛ بل تقطع السبيل على أيّ دينك عابر... وتستسلم كاللحاجة لكلّ من هبّ ودبّ ولا تحرم أحداً من خيراتها ! إذن يجب أن تلجمها وتكلفها ببعض الأعمال الصغيرة ، وارخ العنان لها أحياناً ، وليتعرّض لها من يحسب نفسه رجلاً ! لعلّ من حسن الحظ أن الناس بمستوى من البلاهة ؛ بحيث أن معيار احترامهم لأيّ شخص يتشكل من مستوى علاقته بهذا المسؤول أو ذاك"

و ها هو محمود الفارح الطول الذي يكاد أن يمس رأسه سقف غرفته واقف يتطلع من النافذة ، ويبدو متعباً ، وقد إجمرت بشرته أكثر ، وتجهّمت سحنته :

- لماذا لم تحضر بروانه لحد الآن يا دلير ؟

- فديتك روحي .. إذا لم تأت بعد قليل ؛ سأذهب بنفسى للبحث عنها ..
ثم يستلقي محمود على سريره ويرنو متأملاً السقف : " لا أعرف ..."

وفجأة يسمع طرقات خفيفة على الباب « فيفتحه ، فإذا بها برواته ، وما أدراك ما برواته؟! عروس في ليلة زفافها، يتراقص رنفاها مثل نايضين عند المشي ، وعيناها المتصيديتان تشعان سحراً وتخدران الرائي، ويظهر نهداها من فتحة صدرها كحمامتين قرعتين ... وعندها يمسك محمود معصمها بقوة ويجتذبها نحو السرير ، لكنها تتصنّع العفة وتبدي التمتع لسوء حظ محمود رغم سرعة استجابتها المعهودة:

- آآه لا لا لا لا...كن

يطوق محمود عنقها بذراعيه ، ويجتذبها إلى السرير ، وهي تحاول التملص منه ، ولا تريد الإستسلام بسرعة؛ لأنها تعلم جيّداً أن سحر المرأة الطاغى يكمن في غنجها، فإن نسبت ذلك ؛ سيبتل سحرها

- كيف حالك يا دلير العزيز ؟ هذه الرسالة من (سلام) فالرجاء إيصالها إلى كاكه محمود ..

يتردد دلير في الإجابة وكأنه قد شمّ رائحة ما :

- لكن ..

- الجواب السريع عليها ضروري جدا ، سأبقى هنا منتظراً...
يمضي دليبر نحو الغرفة متردداً ويدخلها فيتفاجأ!
- المعذرة...

وينسحب مسرعاً ويتسمر في مكانه وقد إكتهر وجهه :
- عزيزي آزاد ..كأكه محمود مشغول الآن ، فأنصرف الآن ، وسأوافيك بجوابه
لاحقاً
وعندها ينصرف آزاد
ويتناول دليبر إبريق ماء ويسرع إلى المراحاض...!

(٧)

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة
الوقت صباحاً، ظهراً و مساءً...

كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصلة، و طالما كان
الصبية النزقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بالعبارات الإستفزازية :
- إختلط عليك الوقت يا خال عزيز! وقد فات موعد الصلاة...!
- ألم يحن موعد الصلاة يا خال عزيز؟!

وعندها كان يرفع رأسه ويفتح عينيه الصغيرتين تحت حاجبيه الكثين الأبيضين
متطلعين إلى أعلى أغصان شجرة التوت:

- ليس بعد يا خال..! فحين يبلغ الظل أعلى غصن من الشجرة؛ يحين موعد
صلاة الظهر.

- لكن خليفه خدر قال أن موعد الصلاة قد فات ، وقد إختلط الأمر على الخال
عزيز!

وعندها كان ينهض بصعوبة ، ويخطو بضع خطوات مستنداً إلى عكازته ، ثم
يعتدل في وقفته، ويستنشق الهواء:

- هراء ما قاله خليفة خدر، إنها أسطوانة جديدة؛ فمنذ أن وعيت وأنا مضطرب لهذه القرية حسابات الأوقات والسنوات والنجوم وأيام رمضان وأوقات السحور والإفطار والأعياد وأربعينيتي الشتاء والصيف؛ فلماذا لم يختلط علي الأمر ولو مرة واحدة؟! تباً لخليفة خدر! والله أعلم حتى متى تحبض زوجته! سحقاً لخليفة خدر! فقد تمادى في استغفالك بأحاديثه السمجة! إير الزمال في (..أمة) وفي دهر شيخه المبارك!

الشمس تنحدر نحو الغروب، وخليفة خدر واقف على شرفة بيته وعيناه تتطلعان صوب الأفق البعيد، وهو يستبح بمسبحته ذات المائة حبة وحبة، وتختلج شفتاه، ويزداد اضطراباً؛ كلما انحدر قرص الشمس أكثر:

- لأدري لماذا إنقطعت أخبارهم؟! اللهم اجعل الخاتمة خيراً. فقد أن أوان العودة ولكن قافلنا لم تعد بعد؛ فهل إختلط الحساب علي؟! ليتني قد إختلط علي؛ لعلني أنخلص من هذه الهواجس والوساوس... فالتناس قد أغلقوا أبوابهم على أنفسهم، وانصرف كل واحد منهم إلى شأنه. فذاك ميرزا الذي إندمن طوال العام هذا في غرفته ولم يبرحها، وهو يلزم صبا طوال ساعات الليل والنهار مثل كلب! فلنجيء يا ميرزا مرة واحدة يومياً لتختلط بالرجال، لا يبارك الله فيك يا من يحسبونك فيهما حكيماً! فليحل الخراب بهذه الدنيا التي فيها هكذا حكماء! معلوم؛ فقد كان منذ البداية غير راض عن القافلة، ولم يكثرث بأمرها. أولئك أجازف بإراقة ماء وجهي قاصداً بيته قبل بضعة أيام، وبرهاني هو وجود أحد الببشمركة ضيفاً عنده؟! ألا حل الخراب بدارك! قسماً بالقرآن لو كنت أدري بحقيقة موقفه؛ لما قصدته أبداً، فكأنه قد يبدأ فترة المراهقة لتوه ويلتصق بـ (صبا)ه إلا نلت الخسران في حضرة الله تعالى جزاء إخراجك لي أمام ذلك الببشمركة؛ كما لو أنني نطقت كفرًا بسؤالي:

- ميرزا أعتقد أن قافلنا لهذه السنة ستعود بالسلامة؟

- ومن يقود القافلة؟

- شيخه ابن حاجي شيخ

- - ها... إنه رجلك المصطفى ! قسماً بالله يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل
أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا
في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنهمسطت الأرض أمامها !

ألا خجلت الله يا جناب ميرزا كما خجلتني أمام ذلك الضيف ، وحلّ عليك
غضب الله ؛ ما دمت لا تنطق بكلمة طيبة واحدة ، لأدري لماذا تنفوه دوماً
بالسوء ؟ ألم تسمع ما تفضل به سيّد الكائنات فداءً آبائي وأجدادي ؛ " الكلمة
الطيبة صدقة ؟ " كلا .. إنه يعرف ذلك ، لكنه لم يقل ذلك إلا نكايه بي .. أجل ؛
فهو يدري بأنني أول من ارتأى أن يكون (شيخه) على رأس القافلة ، ولذا
لا ينطق لسانه بكلمة طيبة ؛ مثلاً لك يا ميرزا الثعلب ! لو إكتفى بذلك ؛ لكان الأمر
فاناً مؤكداً بأنه سيثبتنق بالكلام نفسه لكل من يقصده : " لا تركنوا إليه ؛ فليس
سوى الله يعلم بما يحدره في الخفاء ! فهو لا يتهج إلا إذا رآكم أذلاء مكروبين !
فابتعدوا عنه أثابكم الله خير ثواب ... سيحفر لكم حفرة ، ثم سيفترج عليكم حين
تسقطون فيها ! إنه لا يرزح تحت حمل ما ، ومتى ما داهمتنا بلوى ؛ سينجو بجلده
لانذا بشيخه المبارك .. أما أنتم فإلى جهنم وينس المصير ! "

رفع خليفه رأسه وتطلع إلى مغيب الشمس واستنشق الهواء ملء رئتيه :
" انظر ! انظر ! إلى السماء كيف تمطر غضباً ، الغضب والدم يحجبان السماء ،
وكيف لا ؛ وقد تغير الناس ، وانصرفوا عن الله تعالى ؟ ! فإذا استمر هذا الوضع ؛
فليست القافلة وحدها لن تعود ، بل ستطبق السماء على الأرض ... أجل
ستطبقان على بعضهما البعض ، وستحق العواصف والأعاصير كل ما ملكت
أيدينا وما لم تملك محقاً ميبناً ، ستعمل حقولنا وتتشرد نساؤنا وأطفالنا وتلفى
البلاد ... سينزل علينا الله غضبه الهدار ... والله وبالله وثالله سينزله بنا وأكثر ؛
وكيف لا ينزله ؛ مادام ابن الديوث الخال عزيز الخال خراء بهرف : " سحقاً
لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه الخداعة ؛ لا تسلموه لحاكم ؛
سيحلّقها ويعطي بأيديكم المرايا لتتفرجوا عليها . وإذا ما وقعت الواقعة ينجر
بنفسه ويفترج من العلالي عليكم ، حيث يلوذ بشيخه ، أما أنتم فداعبوا خصيتي
كديشه ! "

ثم رفع رأسه ونظر إلى المغيّب ، وشهق شهقة عميقة : أنظر إلى السماء تمطر غضباً ، أنظر كيف يحجب الدم والغضب وجه السماء ! لقد تغيّر الناس ! ابتعدوا عن الله . فإذا استمرّ الحال هكذا ؛ سوف لن تضيع القافلة قط ، بل سنقلب الدنيا ويصير عاليها سافلها وسافلها عاليها ، وسيمطر الحجر ، وتعصف الأعاصير بديارنا ، وتعرض للإبادة ، وتضرب الأقات حقولنا وبساتيننا ، وستشرد نساؤنا وأطفالنا للثور على لقمة خبز... أجل ؛ كيف لا يغضب علينا نور العيون و مالك الكون ؛ إذا تملأ ذلك الديوث الخال عزو الخال خراء في في تجاوزاته : " سحقاً لخليفه خدر ! فقد تملأ في استغفالك بأحاديثه الخداعة ! إبر الزمال في فرج أمه و دبر شبخه المبارك " ستحلّ علينا اللعنة وكيف لاتحلّ ؟ ! (إلهي إقبل توبتي ، ولا تحسب كلامه كلامي... التوبة التوبة... ولا تضيق أجري " واخذ نفساً عميقاً : " يا حق... " ثم هبط درجات السلم وهو يحجل ومضى إلى المسجد ، حيث تروضا وانهمك في الصلاة ، وكان ذأبه أن يبتهل بعد كلّ صلاة ويضرع متطلّعا إلى السماء ، باسطاً يديه : " يا هوو يا خالق يا جبار يا هوو ... أغثنى .. لاتخذلني في عيون الحثالات الغرغاء.. وأنت يا شيخي المبارك يا شاه النقشبند إشفع لي ولا تخزني ... فقد نذرت خروفاً سأنحره عند عودة القافلة سالمة هذه المرة ، وعهداً ألا أنوق نفقة لحم منه ! يا هوو مدد... يا هوو يا مغيث المساكين ... يا حامي المستضعفين .. يا خالق الأكوان والليل والنهار ... إني الكلب القابع أمام باب تكية الشيخ المبارك ألوذ بك يا رب العالمين... أولم تفضل يا نور السموات والأرض بالقول " دعوني ؛ أستجب... " ؟

كانت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيه وتجري في ثنايا لحيته البلقاء.. كان يتمتم ويفغمم ويتلفت يمنة ويسرة ، وينفخ و يطلق زفراته الحرّى حواليه... وبعدها أعاد ترتيب هندامه ومضى مشوش البال قاصداً بيته : " أرى من الحكمة أن أقصد الديوث عزيز العجل ! لا لا... من الأفضل أن أرسل (زيني) إليه : قومي يا حرمة واذهي إلى الخال عزيز واسأليه ما رأيه.. وما قوله ؛ فالناس يقصدونه من كلّ فجّ عميق ، وهو سيكتهن بمصير القافلة حتى لو غارت في أعماق الأرض !

إنها حكمتك يا رب! تهب الحكمة والكرامات لمن لو قابضته بحمار ، لخسرت البردعة! غفرانك يا إلهي يا غفار الذنوب يا من تغفر ألف ذنب بتوبة واحدة! أنت العارف بكوامن الصدور ، لكنني أشهد بأن عيني الآن ماسيقول هذا الزنديق: " يا زيني أنت أختي ..أنت أمي ، أضع حذاءك على رأسي ، ولكن لا تدخل لي بذلك العريض اللحية المكسور القرن حتى لو كنت زوجته! فالزيجة قسمتك ونصيبك ! ولا يمكن فعل شيء حيال نصيبك ! لكنك إمراة مصون تفيض خيرات ذاك المبتذل من يدك ، بل لولاك ؛ لسحلت الكلاب ذاك الكذاب الأر عن ! إنك تعرفين مدى اعتزازي بك ..قسماً بالله الواحد الأحد لولا اعتزازي بك لما فتحت فمي ، ولكن لأبأس أن تفتديه هذه المرة أيضا ، جعله الله فداءً للتراب الذي تطؤه قدمائك..فأذهبي يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لايجد سبيلاً للخروج من (جبل الصد ما رد) ولن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمتلك سبع أرواح!" ثم يهزّ الخال عزيز يده ، ويعبس ، ويأخذ نشقات سريعة من سيكراته وهو يلهث: " أسرع في الذهاب وقولي له: لاجدوى لذهابهم للبحث عن القافلة ، ومع ذلك فليذهبوا درءً للوم الناس ...أواه من وجع ظهري! وقولي له ...إذهبي بسرعة وقولي إن (فرج) قد انفصل أيضاً وضلّ الدرب ولن يهتدي إلا بعد وقت طويل...ولا تنسي أن تقولي له لينهمك في الصلاة وليتضرّع إلى الله وليبك كالنساء ! ولكن هل سيسنجيب الله لدعاء هكذا ضرامط...؟! "

" من الأفضل أن أقصد جمال... " :

- ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أباً عن جد...إن قافلتنا قد تأخرت في العودة يا ولدي...والله وحده يعلم أية بلوى أحاقّت بها !

وهنا يتشنج صوته:

- يا لهول الخراب! سينصب علينا لوم الناس لامحالة، سنفقد ماء وجهنا، ولا نجرؤ على رفع رؤوسنا أمام الناس! سينبهي علينا أن ننكس رؤوسنا في هذه

المنطقة وتلقى تهكمات وسخرية الناس... في هذه المنطقة ! فقط؟ لا طبعاً؛
 حيث سيبلغ الصدى أقصى البلدان السبعة ، حيث سيقولون: " يا لهم من
 مفقاعسين ودينين وأخساء؛ بحيث لم يهتروا لنجدة قائلتهم!" وبعدها لا تبطلنا
 الأرض ولا تختطفنا السماء! أجل؛ سنصير عبرة للعالمين...فانهض يا ولدي
 يا من أحسبك الرجل الوحيد في هذا....ويمت وجهي إليك بلحيتي البيضاء،
 اذهب إلى علي حاجي وعبدالله مصطفى وكاكه ولا وجوامير وازور والشبان
 الآخرين؛ ليجيء راكباً من لديه حصان وراجلاً من لا دابة لديه، وانتظروني
 خارج القرية ، حيث سأتي بحصاني ..أكاد أنشق وأنفجر...هيا فديتك روحي
 ...سألتحق بكم في الحال ، ولاتنس أيضاً ياولدي أن تعرج على ميرزا إسماعيل
 ، وتستوضح رأيه.فهلم يا جمال..

علا الزباح داخل القرية. كان وقع سنابك الخيل وحمحماتها وعويل النسوة
 المتجمهرات على المشرقات وأمام الأبواب بيت الخوف في القلوب:
 - سيحل بنا الخراب...

- سنشرّد...أخزى الله منّ تسيّب في ذلك...

- ويلاه من (جبل الصّد ما رد)!

- عمت عيوني عليك أيتها القافلة التعيسة!

- أطين رأسي لحظك التعيس يا أخي شيخه!

- لقد انفصل فرج يا أختي؛ فيا للدمار!

- هاتوا قافلة تحمل أحراني ويلاه

تأخذني إلى جبل الموت ويلاه

تنقذ روحي وكلّ أحبتي ويلاه

- و لماذا كلّ هذا الصخب والضجيج؟! هل نفقت الأبقار وانقطع اللبن؟! ومتى

كان لنا نصيب في خيرات القافلة ؛ لكي نهتمّ هكذا بمصيرها؟!

دخل خليفه بيته باضطراب ، حيث استقبلته زبني:

- ويلتاه يا خليفه فقد قال الخال عزيز: "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقَة في (جبل الصدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"
فاجتاح الخور أوصل خليفه وغشي حزن غريب عينيه:
- لا ، لا لا تقولي هذا يا حرمة هل أنت متأكّدة؟!
- أجلّ... والله ..فقد قال : " لقد انفصل فرج القافلة وضلّ الحرب ايضاً، ولا تأملوا رجوعه عتاً قريب...
- لا حول و لا..."

و راح يغمغم بصوت خفيض: " ومع ذلك ، لايجوز أن نتركهم هكذا..."
- هنا يا حرمة أسرجي حصاني ريثماأتي بينفتيتي ...
" لقد أبطلت كل ما غزله يا عزه المخبول!"
- " ... فالقافلة عالقَة في (جبل الصدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"

- حطم الله فكبك و شلّ لسانك ؛ كان المفروض أن تؤجل أكل هذا الخراء يا خال! لعني كنت أجد فرصة للتفكير والتعبير ، و.....آخ منك يا زيني يا منقلبة اللسان! إلهي رحماك من وقوع كلام في شقّ امرأة! ليت رقبتي انكسرت ولم أرسلك إلى ذلك المجنون الهلّذي...ولكن (جبل الصدّ ما ردّ) قد يكون موجوداً ..ها إنه محقّ...خذوا الحكمة من أقواه المجانين أو الصبيان لافرق! دعنا من ذلك ، ولكن ماذا أفعل مع هؤلاء الناس المذّج سريعيّ التصديق؟ فقد صدّق جميعهم في قرارة أنفسهم...و حالما سنصل قرب (جبل الموت) سيماطلون وبعودون أدراجهم...!

مرّ خليفه المعتلي حصانه كالسهم الخاطف أمام النسوة اللواتي كان نواجهنّ يقطع نياط القنب:

- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه
تأخذني إلى جبل الموت ويلاه
تنقذ روحي وكلّ أحبتي ويلاه

و غادر خليفه القرية إلى حيث كان جمال وشباب القرية في انتظاره

- ولدي جمال هل أنتم مستعدون؟

- أجل ، فلنذهب يا خال خليفه؛ فالجو ينذر بسوء !

وشرع الجميع بالمسير واجمين يتقدمهم خليفه الذي كان يتوقف قليلاً من حين لآخر؛ ليسترق السمع : "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقَة في (جبل الصّدّ مارذ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"

- هنيئاً لك تشمت بي يا عزه الفجري!...الله كريم وكرامات شيخنا المبارك بينما كان بهز رأسه. كان الوقت متأخراً ، والجوّ ينذر بسقوط ثلج كثيف، وكان الجميع قد تخذرت أوصالهم وهم على ظهور الخيل، فمن الأفضل في هكذا جوّ أن يمشي المرء راجلاً ، وفجأة هبت ريح ذات أزيز عابرة أغصان أشجار البلوط العارية وو...وو...وووو...تذكر خليفه عويل ونواح النسوة المتفجعات:

- هاتوا قافلة نحمل أحزاني ويلاه

.....
فترجل عن حصانه:

- ويّ ويّ لهذا البرد القارس ويّ...

وراح يمشي راجلاً، ثمّ توقف برهة:

- جمال وأنتم يا شباب ..لقد قطعنا شوطاً طويلاً، وقد تردّى الجوّ جدّاً ؛ فأخشى أن تغمرنا العاصفة الثلجيّة ، ونخسر الشوارب أيضاً إضافة إلى اللحى! لم يبق أمامنا الكثير لنصل كهف (مُغان) غير مسافة لا تزيد على مائتي خطوة ؛ أليس من الأفضل أن نحط الرحال هناك ، ونشعل النار ، ونتمترّح حتى الصباح المقبل و...؟

- اقترح جيّد جدّاً

مشى الجميع راجلين ، وكلّ واحد منهم مستغرق في هواجسه وتخيّلاته ...
- إلهي ! شيخني المبارك...لماذا فعلتما بي هذا؟! أواه! سيّتشت بي عزه الفجري وميرزا ذو الرأس الكبير والفوغاه...أستغفر الله...و لا حول ..و لا قوة...

" ولدي العزيز جمال.. إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أبا
عن جد "

" آية قافلة ! فلتاكل رأس صاحبها ، كما أكلته! "

" شيخه؟ ههه أ يصلح مثله لقيادة قافلة؟! فلو كان رجلا كفوة ، لحق له
ذلك... ولكنه آخر زمان ...آخر زمان ! "

" وأنت يا فرج يا زين الرجال وا أسفاه! أرجو ألا يخذلني عهدي بك ، فترجع
إلينا... "

" ..ليست هناك قوة قادرة على إنقاذها "

" والله لولا لومة اللانمين ، لما حملتني قنماي ...! "

" خليفه اللامبارك ! هل تحسب هذا الأمر كالأدعية والصلوات؟! "

" غدا.. عصرا .. سنصل قدمات (جبل الصد ما رد)

- لم تعد حتى الآن آية قافلة من ذلك الجبل اللعين...تصور إسمه كم هو مروّع !

كان الظلام دامسا ، وكانت العاصفة الثلجية المزمجرة تفرع قلوب الرجال..

- آ...آ...ه وي ساقى وي ..لقد خارت قواي ..حمدا لله فقد وصلنا..

- يا حيف يا خليفتنا لقد شخت !

- أجل ؛ يا بني واه وي وي ساقى ..؛ إنها الشيوخة وألف عيب!

حطوا رحالهم ، وسارعوا بوضع التبن والشعير في الفرارات ، وعلقوها

برقاب الجياد ، حيث ربط كل واحد جواده بشجرة، وسارعوا بجمع كومة من

الأغصان والأعواد والقش ، وأشعلوا فيها النار أمام الكهف، وراحوا يمتدحون

النار:

- إنها نارنا الملتهبة لن نعطيها للبت الغريبة

- النار لهاكمة الشتاء والبرغل علف الرجال!

كان أحدهم أثناء المسير يصيح من حين لآخر:

- يا شيخه يا يا...

فكانت الجبال والوديان تردد الصدى " يا..يا ..يا..يا.. "

- يا قافلة... يا يا...

- يا فرج يا يا...

كانت الأصوات والأصدا تتردد بين الجبال ، ثم تلاشى وتضيع...

كان الجميع منهكين ، دائخين و جائعين ، ويتبادلون النظرات المتسائلة ، ثم لا يلبث الواحد منهم أن يطأطيء رأسه كأنه يقول: " لاجدوى ، زلاتبحث عن المفقودين"!

ثم هدأت العاصفة الثلجية ، ولكن غيمات داكنة كانت تحجب الشمس أحيانا ، وتلتصق ظللها بالأرض كالرقع لفترة وجيزة... بينما كانوا يسلكون طريق العودة إلى القرية مهمومين مختمين يحذوهم خليفه البادي في غاية الإضطراب والإحباط: " لا ، ينبغي ألا أعود إلى القرية في هذا الوضع ؛ سأعثر محط الإستهزاء والسخرية... يا لمصيبة انطلاق ألمنة الناس من عقائها؛ فهي تحيل المرء إلى خرقة قذرة .. وتلق له ألف قرية و قرية. يجب ألا أعود الآن ؛ فسيرمون على عاتقي مسؤولية كل ما حل بقريتنا في ماضيها وحاضرها... سيتصدى لي حتى الصبية الزعاطيط ويتعنتر علي كل من هب و دب... فأين أنت يا شيخي المبارك أنجدي..."

و لما وصلوا إلى الطريق المستقيم، توقف خليفه وعينه مغرورقتان بالدمع ، و شفاته ترتعشان. كان يعرف بأنه لو يفتح فمه ؛ سيفلت زمام نفسه ويجهش في البكاء. " تأكد يا خليفه ان قافلة بقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" و " ..ثمادى في استغفالكم بأحاديثه السمجة! إبر الزمال في كس أمه وفي دبر شيخي المبارك"

وفي تلك اللحظات ، تطلع إلى جمال والشباب بعينين غائمتين مثيرتين للشفقة ، وخاطبهم بصوت منكسر:

- أعزائي الشباب... أنا... لا... أس... تطيع العودة الآن إلى القرية ؛ إذ لا يمكنني رفع هامتي... سأقصد شيخي المبارك وأستجير به... وسأسهر حتى الصباح الباكر مبتهلا إلى الله ؛ لإنقاذ قافلتنا المنكوبة... أستودعكم الله ..

و لكز خاصرة حصانه بركابه واستدار يمينا ، وانطلق حصانه ناهيا الطريق ،
بينما كانت عيون الشبان المذهولين تتابعه حتى اختفاته عن الأنظار...
- يا للمسكين التبعيس ! سبهيم على وجهه من شدة الخجل..
- اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحية!
- إنكم لاتعرفونه حق المعرفة؛ فهو أثافي سبعة قنور!
- في كل شعرة من لحيته ألف حيلة ! خراء على لحيته!
- حسنا؛ وماذا عن مصير زيني؟
- ها هو... أنتم لاتعرفون خليفه الذي غلب حتى إبليس ؛ سيتمثل خلصة ذات
ليلة ويأخذها...إلى حيث يعيش..
- إن هذا أفضل لنا ؛ مادام قد ولى و غرب وجهه عنا
- بولي؟! لا أعتقد ، إنما سيقعي كالكلب عند شيخه المبارك متظاهرا بالتقوى
والورع ، وينتظر حتى ينسى الناس فعلته هذه .. وحتى حينئذ ليس بمستبعد أن
يعود فرج؛ فيقصده متزلفا بمعسول الكلام ، ويقود أخاه الذي لم تلده أمه!
- لن يُتاح له ذلك ؛ فقد ولى ذلك الزمن..
ثم تابعوا المسير ، يحنوهم جمال وهم صامتون لايتفوهون بكلمة، كأنما على
رؤوسهم الطير! في حين كان جمال يتوقف أحيانا كمثل من يصغي لأحدهم : "
بني..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان
يفعله ، وليس في أن يتخدع ، ثم يخدع الناس بمراب الأمانى الخاوية والأهواء
..فلتتقم بما لديك من إمكانيات ، ولاتحجم..؛ وإلا فإن الأهواء الجوفاء ليست إلا
ملاذ العجزة...إن معرفة النفس مفتاح الحياة الحقيقية، وأنتم وما تشاؤون.." و "
من الأفضل أن تذهبوا على الأكل ؛ لكي لايلومكم الناس ..أستودعك الله"
وكانت بسمته أحيانا تضيء وجهه الداوي برهة كومضة برق ، وهو يتذكر : "
ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أبا
عن جد "

ولكنه كلما تذكر مصير القافلة، كانت الدنيا تظلم في عينيه: لقد كان الأمل معقوداً على تكوين هذه القافلة وشروعها بالمسير، فإذا بالشيوخ وأبنائهم، ومريديهم وخليفه يختلسون زمامها ويصبحون أعيان القوم وأسود الميدان...!"

"بلى..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته، وما في مقدوره أن يفعله.."

"ألا يورك في الصלב الذي انحدرت منه والحليب الذي أرضعتك به أمك يا ميرزا!"

وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهدر صوته:

- أيها الشباب..لقد إنتهت أيضاً قافلتنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذن!

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بدون قافلة!

- أجل لانستطيع الإستمرار...لانستطيع العيش..

- فهلموا لنقرر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كل من هبّ و دبّ

..أجل! لنعرف منذ الآن فصاعداً أنفسنا حق المعرفة؛ لكي نعرف الآخرين

على حقيقتهم، ثم إن الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته، وما في

مقدوره ان يفعله، وليس في أن يخذع، ثم يخذع الناس بمسراب الأمانى

الخاوية والأهواء..وإذا لم يكن الراكب قارماً؛ فيصير عبئاً على الفرس، و

إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها؛ فسيتمسبب في هلاك نفسه وضياع

القافلة...

(٨)

- كاكه سلام... يا كاكه سلام!
- نعم عزيزي آزاد.. تعال .. أنا في غرفتي
- قال كاكه دلير أن الأستاذ محمود مشغول حالياً ببعض الأمور؛ سيوافيك لاحقاً
بالجواب على رسالتك..
- هم آزاد بالإنصراف ، لكن سلام ناداه:
- تعال يا آزاد لأقرأها لك ؛ لأعرف رأيك فيها، فقد احتفظت بنسخة ثانية منها...
- فلبّى آزاد طلبه، فقال سلام : إذن إستمع:
- { الرفيق المناضل الأستاذ محمود المحترم
- تحية ثورية حارة
- لكي لاتشوه أية شائبة رسالتي ؛ فانا أسجل واقعة لقائني بذلك الرفيع سيابند ،
- سيامند بلا زيادة ولا نقصان ، وأبعثها إلى جنابكم : أملا أن تنال استحسانكم..

بينما كنت واقفاً أمام الباب ، توقف ذلك المغرور بلا أيّ تكلف كأنه قاصد بيت أبيه الكلب، وقال بتعال:

- نهارك سعيد

وعندها تذكرت تعاليم حضرتكم "...إذا ما شئت الإستخفاف بامرئ ما وإثارة حنقه ؛ فضيق عينيك وزم شفئك قليلا، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان من أقرب المقربين لك؛ أجل ؛ تظاهر بالشرود وانشغال عقلك وانصباب تفكيرك على مصير الأمة ...!" فما كان مني إلا أن أضيق عيني ولزم شفتي ولم أجبه..فحقق لي هنيهة ، ومغم عند مروره أمامي:

- يا لها من مهزلة! إست في الماء وأنف في السماء!

فانتفضت في وجهه كعاصفة تلجئة:

- ماذا قلت يا رقيق؟!

بيني وبينك أستاذي العزيز إنه إبليس ؛ فقد تتصل من كلامه ، ولجاني بلا تردد:

- فديتك.. لاشيء

- كلا... فقد قلت شيئا ما

- فديتك.. لم أقل أي شيء

- كذاب.. لقد شتمت

- ومن الذي شتمته؟

ولكي أستقره ، وأهيج انفعاله وأستدرجه ؛ ليرتكب غلط ما، ذكرت اسم جنابك:

- الرفيق محمود

- لا تلق لي هذا الكلام الباطل؛ فأنا لا أعرف هذا الرجل الطيب ، وليس من حق أن أسبه.

وعندها تقصدت أن أرفع صوتي وأصيح ؛ بحيث يخرج شوان فيكون بنوره شاهدا:

- جميل جداً.. أ لمست عبارتك هذه شتائم؟!

- آية عبارات؟!

- ها... أنت جاهلها؟! و هل ثمة شتائم أقذع منها؟!

- فديتك عذرا ؛ فقد غلظت !

- و لم تغلط؟

كان إبليس يحاول الإفلات من قبضتي بآية طريقة ؛ فأجابني ببالغ الهدوء :

- لأنني ولدت بالغلط!

- ولماذا ولدت بالغلط يا قواد؟!

وجم هنيهة ، ثم أجاب:

- عزيزي لا يتطلب الأمر برهانا ؛ لم ولن يولد أي إنسان بمحض رغبته

وإرادته

- و هل هذه فلسفة ، أم غلط؟!

- لم تنس الفلسفة هذا الغلط يا عزيزي

- واضح جدا بأنك تضرر الكثير و تظهر القليل جدا!

واقتربت منه وسألته بالبحاح:

- حسنا..و ماهي الفلسفة؟

- علم العلوم ..علم في غاية الرحابة...أم العلوم قاطبة

- و ما مدى رحابة الفلسفة؟

- إنها أرحب من تطور الطبيعة ومن تقدم المجتمع والفكر البشري !

- طيب ..إذا كنت تعرف كل هذا؛ فلماذا ولدت بالغلط؟!

- فديتك..إكراما لخاطرك ، فأنا أعيش أيضا بالغلط!

- و ماذا تفعل هنا إذن؟!

- مشدود بهذا المكان

- كيف؟

- بالغلط!

فحتجته شزرا بنظرات نارية، وصرخت في وجهه؛ فمضى مسرعا إلى

الكنيف..فقلت لنفسي " لا بأس ..يبدو انه قد فقد السيطرة على نفسه من شدة

الخوف" وحضر(ريبوار) في تلك اللحظات ؛ فسردت عليه الواقعة حرفيا مثلما

أدونها لجنايك بالضبط ؛ فلم يستطع ريبوار ضبط أعصابه ، فهمهم ساخما

- لقد تمادى هؤلاء السفلة في صلفهم ؛ قسما بكرستان لنجعلهم عبرة لمن

اعتبر..

- لا، يا عزيزي ريبوار- و عذرا لتعبيري يا أستاذنا الجليل- سنجعلهم كاشية

من أرضية المراحيض!

و فجأة علا صوت سيابند:
- كلما زاد السماد الحاضن للبذرة؛ نبتت وأزهرت بمسرة، وتفتحت الزهرة
بصورة رائعة. وكلما إنحط المجتمع؛ تمارعت وتيرة ميلاد الفكر، وتسارع
حمل السلاح؛ فلابأس أن نكون الآن كاشية فوقكم!
وعندها اندفعنا للإقتضاض عليه، لكنه لاذ بالفرار.
ودمتم للنضال.

سلام

{ العضو المتقنم }

- فما رأيك يا آزاد؟ أظن بأن الأستاذ محمود سيستحسنها؟
- لييتني كنت أملاك موهبتك الكبيرة في الإنشاء.. والله لو كنت مكان كاكه محمود
؛ لجعلتك مسزول جريدة سياسية
فطرب سلام كثيرا لذلك المديح
- لماذا؟
- بيني وبينك. إنك تنقن السب والوعيد!

(٩)

عجوز ممتحة بالسواد وضعت صحنًا من اللبن الرائب أمامي وصبت لي
الشاي. كانت رائحة كريهة تفوح من الصحن، ونهضت العجوز متناقلة:
- سأذهب لجلب قليل من الماء من النبع يا ولدي، أما أنت فتناول طعامك، ولا
حرج عليك؛ فاليبيت بيتك، فإذا تأخرت أنا في العودة وشتت الإنصراف؛
فاسحب الباب وراءك.
ورفعت رأسي، فإذا بإمرأة أمامي شبيهة بالخالة ميرم وهي تسير في مهب
الريح مرسلت شتامها وصيحاتها: " هو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا
أرض يا سماء إني أخاطبكم جميعاً؛ فلا تتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرنا)
حذار أن تغلطوا وتأكلوا هذا الخراء مرة أخرى أن تقولوا: (سيابند ابن ميرم
كان خائناً) إهبن الفقير لايخون، وللولل للقطاكنم إذا قالوا عن رنج بأنه ابن
خائن! قسماً بالله وكرستان سامرغ جباهكم في الوحل... هيّا أخرجوا إليّ

أخرجوا ..خسنتم يا جبناء أخرجوا لماذا تنتمون كالكلاب الحفيرة بين أفخاذ
نسائكم...أخرجوا وانظروا ...فلما أخذكم الموت جميعاً ؛ فداءً لساعة واحدة من
عمر صادق دوزخي...هو...أيها الناس والله سيابندي سيابندي إبنی شهيد ...شهيد
الشهداء..."

" لقد قاست مريم التعمية بؤس الترمل وشظف العيش؛ لكي تربي وتعلم ابنها ،
وتحملت شتى صنوف الحرمان...أجل ؛ فقد ضحّت بشبابها وحياتها، وتلفتت
الصعداء؛ بعدما استطاعت أن تزوجه وتكون له بيتاً ، فانزاح عبء ثقل عن
كاهلها، وأن أولادها خلودها إلى الراحة ؛ ولكن سرعان ما وقعت الواقعة ؛ و
كانما فُذر لها أن تربي اليتامى...وها هو دور حفيدتها رنج!"

و فجأة جفلت على صوت صفارة ، فنهضت واقفاً أستجلي الأمر، فإذا
بالبيشمركة يتقاطرون أفراداً وجماعات من أزقة القرية على المسجد، بينما كان
دوعي المدافع يتناهى إلى الأسماح ويتردد صناه في بطون الوبيان ، وبين الفينة
والفينة كانت لعلعة رشاش تستثير همم البيشمركة للذين إحتشدوا جميعاً ، ماعدا
دلير الذي لم يبد له أثر.

وانبرى القائد (نيز) يخاطبنا:

- أيها الشباب..لقد تشبعت معركة ؛ فطينا الإسراع لنجدة رفاقنا البيشمركة ،
ونسصل إلى هناك في غضون نصف ساعة؛ إذا حثتنا الخطى. وريثما نصل ،
سيكون أخوتنا البيشمركة قد قطعوا الطريق على قوات العدو، وهي قليلة ، ثم
إنكم من البيشمركة القدامى وأنتم أعرف مني ولستم بحاجة إلى إرشادات حسب
اعتقادي، وحالما نبلغ المكان ، سيتخذ حملة بنادق البرنو مواضعهم، ويتقدم
حملة بنادق الكلاشنكوف، أما حملة رشاشات الـ (بي كي سي) فيكونون على
الجانبين ، ثم سيلو كل واحد منكم بلامه في موضعه ...يا ترى هل تخلف أحد؟
- دلير فقط

- أف له..أي ديوث هذا الذي إبتليتني به يا محمود؟! بعد عودتنا سالمين من هذه
المعركة؛ سأعالج أمره...والآن هيا يا رفاق فديتكم ...ليدبر كل واحد منكم شيئاً
من الخبز من البيوت ، ريثما نغادر القرية...

تقدمنا نبز ومع مسيرنا تزود البيشمرکه بما تيسر لهم من الخبز من البيوت الواقعة على الطريق ، وإذا بنا نرى دليز واقفا على الطريق ، وهو يحمل بندقيته برنو بدلا من بندقيته الكلاشنكوف ذات الأخمس الحديد ، فخالطه نبز بغضب:

- أين كنت أيها الرعيد ، وأين كلاشنكوفك؟

- استبدلتها ببرنو (خوشنلو) يا كلكه نبز

فألقي نبز علينا نظرة ذات مغزى تفصح بصراحة " أنظروا إلى هذا الجبان ، وأجيبوني بضمائرکم أ هو بيشمرکه ؟ وهل كان له هنا مكان لولا أخته الـ...؟!"

و سرنا في طابور طويل. كان الجميع صامتين ، وكان كل واحد منا يفكر بالانتقام على حده.. وأنا في ريبة من هذا المعامل دليز وأخشاه كثيرا ؛ لربما أرسله محمود خصيصا لمراقبتي ؛ فقد إرتاب النذل في بآني على علم باغتيال سيابند، ولكن لماذا لم يجاهرني بذلك؟! إنه داهية نخل، ويبدو انه قد إدخر لي العقاب. سينتقم مني حتى في آخر يوم من عمره. إنه أخس الأخمساء، ولا يتوانى عن اقتراف أية جريمة في سبيل مآربه النفيسة... إية... كفى يا مستودعك من هذه الظنون والهواجس التي تراودك وجعلت الدنيا في عينيك جلد عصفور؛ فمن يكون هذا الحيوث الجبان؟ والله لو استحال نلرا لما أحرق قمعة! ولكن لا، لا، لا يا مستودع حذار من هكذا أنساب؛ أوكم يتمسبوا في اغتيال سيابند؟! مازلت أتذكر الواقعة ؛ فقد شككت والتصقت بركن عند الباب الأيسر، حيث أخذ سلام وأزاد سيابند وحالما وصلا باب غرفة الرفيق محمود دفعاه إلى الداخل بعنف، وهتفا بصوت واحد:

- ها هو يا رفيق محمود وبعد برهة صاح الرفيق محمود حانقا:

- ما هذا يا (حرب!) (**) " سنجنطهم كاشية لأرضية المرحاض" ما هذا

الهراء الذي تفوّهت به؟ أخرج أيها الدنيء الرعيد يا سلام

ثم التفت إلى آزاد :

- وأنت لماذا تسمرت هنا؟! إغرب عن وجهي

فخرج اللذان كانا ذنبيين قبل قليل ، و مكثا يرتجفان أمام الباب كعالمين مذعورين ، وكان سلام يرمق وجهه أزاد بنظرات ذليلة كنظرات طائر مقفوص ، وهو يتذكر عباراته : " ليتني كنت أمثلك موهبتك الكبيرة في الإنشاء.. والله لو كنت مكان كاكه محمود ؛ لجعلتك مسؤول جريدة سياسية" ها...!

كان سيابند أهلاً لمجابهتهم ؛ حيث كان يعرف مواطن ضعفهم ، وإذا ما وجه إليه أحدهم إهانة ؛ كان يردّ عليها بعشر ، ويلقي الرعب في قلبه...
التفت الرفيق محمود إليه:

- ما اسمك؟

- غلط!

- أين من؟

- غلط!

- بالله عليك كيف يكون (غلط) إسماً؟!

- مادام أفضل من (تضليل) يا رفيق محمود (***)

- و من يتسمّى بـ (تضليل)؟!

- الكثيرون هنا وهناك

- مثلاً؟

- إسألوا أنفسكم و أجيبوا!

- حسناً.. أيها الولد الطيّب ما الفرق بين (غلط) و(تضليل)؟

- من أيّ جانب؟

- و كم جانباً له؟!

- العديد

- بين لي جانباً واحداً..؟

- هل لأنكم تقيمون الأمور من جانب واحد؟

- إخرس... هات ما عندك

- حسناً... سأحلله لغويّاً

- تفضل..

- الغلط : إسم ، مفرد ، معرفة. التضييل: مصدر، وهو أصل مصدر كل المحاسن والمساويء... أما المحاسن فعلها السلام ؛ فهي تُشْتَقُّ عندنا عشرات المرات يومياً... ويكون فعل التضييل لازماً وبالنتيجة يتحرك الغلط داخل حدوده ، حاملاً عوامل تنقيته، لكننا (التضييل) يتعدى حدوده؛ مستبطناً عوامل تلوثه وقذارته!

- طيب...مادمت تفكر هكذا؛ لماذا تفعل هنا؟!

- إنني مشدود إلى (هنا) بل أن جذري متأصل (هنا) ولي ضمير حي نابض..

- أ هذا جواب سؤالي؟!

- نعم هو بالذات ، لكنك تجهل جواب سؤالك!

- يعني أنا حمار؟!

- لا أدري

- حسناً. ماذا يعني الضمير الحيّ النابض؟

- التواصل الحميم مع الناس وإدراك هموم وأتراح اليأساء وطموحاتهم

فز عرق الرفيق محمود:

- تعالوا خلصوني من هذا الرقيق!

فاندفع سلام وأزاد إلى الغرفة كخنيب جانعين ، واقتاده بسرعة إلى الوادي .

أحنيت رأسي ، وغشيت الدموع عيني: " سيقتلونه ؛ فما أيسر القتل ...! "

" إنه يروج أفكاراً سامة "

" ...نقتله، وبعدها نذرف عليه بعض الدموع أمام انظار الناس.. "

" سيقتلونه..سيقتلونه ؛ ثم يلفقون شتى التهم بحقه ويحسبونه خائناً خطيراً! "

ثم ركضت نحو ركن سائر ، وكبوت على وجهي ، وغبت عن الوعي ، وبعد

هنيهات عصفت بقلبي لملمعة صلية عبارات نارية بعيدة...فخاطبت نفسي : " يا

تري ألا نقتل نحن أيضاً هكذا غيلة و غداً..!؟ "

واصل ملابور البيشمركة الطويل طريقه... كنّا نرتقي المرتفع
 صامتين.. واقتربت منا قطعة الرصاص و دوى القذائف ، وانفجعت ورفعت
 رأسي إثر انفجار قذيفة مدفع.. إذن ، لم يبق الكثير أمامنا، سنصل قريباً ، و
 واصلنا السير... لكننا عيناى متوثنان و تشهدان الخالة ميرم ! أ هي حقيقة
 أمامي ، أم شبح يجوس في مخيلتي؟! أقرب منها، فتباعد عني و هي تصيح : "
 " هو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا أرض يا سماء إني أخاطبكم جميعاً؛
 فلا تتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرنّا) حذار أن تغلطوا وتاكلوا هذا الخراء
 مرة أخرى أن تقولوا : (سيلند ابن ميرم كان خائفاً) إين الفقير لا يفون"
 وأعادني هدير طائرة من شرودي ، ورفعت رأسي وتمنّعت فلذا بالتل المقابل لنا
 قد تسريل بالنيران والدخان، ورائحة البارود تضرنا.. " أينما وجد العسف ؛ وجد
 البيشمركة" وسارعنا في اتخاذ موقعا حسب توجيهات كلكه نيز و سرعان ما
 احترم انهمار وابل الرصاص.. وطبعاً يشعر المرء بمسحة خوف قبل أن تحتم
 أية معركة، ثم يتبدد الخوف مع اشتداد وطيس المعركة، لكن الغريب في الأمر
 هو إنني مازلت خائفاً، بل أن هاجسا كابوسياً يجثم على قلبي " وا خلتاه يا
 مستو يا ترى تتوجس خيفة من دليل الوضع؟! " وعندها ضغطت على الزناد
 لكن لم تنطلق أية رصاصة ! فغذرت الشاجور بسرعة، ثم كم إستهيت سيكارة "
 لا، ليس الآن وقت تدخين يا مستو... إنما فيما بعد.. وثبتت عيني على الفرضة
 والشعيرة ، وإذا بصور ميرزا و خليفه خدر والفاظلة تبدو لناظري وتختفي
 بسرعة : " إذن فهو رجلك المفضل! تأكد يا خليفه ان قاذفة يقودها جاهل آخرق
 مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة
 هاربة حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" وتقدمت نحو الأعلى قليلاً ، فلمحت
 مجاميع من الجحوش " يا إلهي إنها معركة بين البيشمركة والجحوش الكردي!"
 وضجت أوصالي بالحركة وأنا أسدد بندقيتي نحو الهدف، لكن أنني إمتلأنا
 بصوت جهور حاولت طرده كنبابة ، لكننا سدى ، فقد كان صوت ميرزا "
 البيشمركايتي محبة خالصة بلا رياء" فجاشت و هاجت جوارحي ، ورحت
 أطلق الرصاص ، حيث كان ألق شبيه ببسة على شفتي رضيع بغمر قلبي مع

كل إطلاقه... وراح صوت أمي يفرزو مسمعي: " أنظروا إلى وجهه اليشوش فهو كوجه الملائكة..." لكنني أتساءل الآن : لماذا لم تزرني مع أبي؟ يبدو انها كانت حاملاً تشعر بالخجل من منظرها ، بل خشيت أن أملحها أمام رفاقي مثلما في السابق " متى سيتوقف معملكم عن الإنتاج يا ماما؟!" أه كم أنا مشتاق إليك يا أمي ! أبداً لن أنسى تلك الأماسي الصيفية ، إذ كنت أعود من العمل ، فتحدثين عليّ وتدلّكين يديّ وقدمي ، وكنت تمطرينني بالقبل ؛ لو أتحت لك المجال ، ولو كنت الآن هنا ؛ لما بخلت عليك، بل كنت أمنحك مائة قبله بدل واحدة... أماه ! شكراً جزيلاً للجواريب التي حلكتها يدك المباركتان...

و فجأة سرى الخدر في ساقي ، وعلت صيحات البيشمركه:
- لاحقوهم إنهم يفرّون... إحرموهم من فرصة الفرار... لقنوهم درساً بليفاً؛ لنلا
بجنحوا إلى الضلال مرة أخرى وتطأ أقدامهم ترابنا المقدس.

كان البيشمركه يصلولون و ينقضون على الأعداء كالأسديال ، فاستجمعت قواي للإندفاع ، خصوصاً وان إحدى ذراعيّ وإحدى ساقيّ كانتا متخترتين قليلاً، وتقدّمت خطوتين ، لكنني كبت على وجهي، وقبل أن أستقيم واقفاً... أخ... شبت حرقه شديدة في فخذي من الخلف ! فصارعت بلف الجرح بيشماغي ، واندفعت راكضاً إلى الأمام غير شاعر بأي ألم ، ولا أعرف كم المسافة التي قطعتها ، حيث سقطت على الأرض وغبت عن الوعي.

هاهنا في لحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...

كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصلة، و طالما كان الصبية النرقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بالقول:

- إخلط عليك الوقت يا خال عزيز؛ وقد فات موعد الصلاة...!

فإذا كان القائل من أهالي القرية ؛ فكان يستشيط غضباً، ولايستثني برشقات شتائمه أمّا أو أخناً أو حياً أو ميتاً! أمّا إذا كان للقلل من البيشمركه ؛ فكان ينظر إليه بنظرات طافحة بالعتاب ويقول: " أينما وجد العصف ؛ وجد البيشمركه.."

بحيث ذاعت هذه العبارة على ألسنة اليبشمركة، وراح معظمهم ممن كانوا يعرفون الخال عزيز أو لا يعرفونه يركدونها " أينما وجد العصف ؛ وجد اليبشمركة" كما أطلقوا اسم (شجرة الخال عزيز) على شجرة التوت أمام المسجد.

كانت الشمس على وشك الغروب ، لمّا فتح مستو عينيه تحت شجرة الخال عزيز، ورأى الخال عزيز واقفاً بخشوع ورجع يتمعن في جسده المسجى.. ابتسم مستو كأنه يبش في وجه الملائكة :

- أي...ن... ما...جد...عس...ف...أواه ! ظاميء...تكاد أحشائي تحترق...
تراجع الخال عزيز واستدار نحو الشمس الموشكة على الغروب وأجهش في البكاء...وعندها شق ميرزا طريقه بين الحشد وقرص قرب مستو المسجى ، ووضع يده على قلب مستو:

- مستو..عزيزي مستو...هل تعرفني؟

فأجابه مستو بنظرة حاتية واختلجت شفاهه بابتسامة عذبة كأنه يقول له : " صدقت في قولك: تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعانتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو انبسطت الأرض أمامها!"

والبح ميرزا:

- مستو يا مستو ..استحلفك بمقدساتك قل شيئاً

ففتح مستو عينيه وجال حواله ناظراً إلى المتحلقين به ، وبدا كأنه يستجمع كل ما بقي من قواه ، واختلجت شفاهه المتمتمتان:

- الإنسان...حقيقة كبيرة...الفعل يختبرها و...آه...آه...الموت يصدر عليها...آه...آه...الحكم الأخير.

وراح وجهه الشاحب ينضج بالمرق، وتجحف عيناه كمثلي كتكوتيّ عصفورين خائريّ القرى يحاولان الطيران خوفاً من أفعى... ثم تشبعت شفاهه:

- ميرزا أنثاي..ت..ط..نان

(١٠)

سار صادق دوغري محني الظهر، واهي الركبتين و مكروبا وراء حشد من
المشيعين الواجمين الذين يغشى الحزن وجوههم ، حيث كان شابان يصسكان
طرفي تابوت مغلي ببساط أحمر خشن مشدود بظهر بغل..
- حين نصل إلى الجهة الأخرى سننقله بعربة تراكاتور
- وا خسارناه! على امتشهاد مستو؟ فتى ولا كلّ الفتيان...
وكنّت تسير شاخص النظر إلى الأرض ، مشوش الحواس ، وكأنك غائب هن
هذه الدنيا! فقد حدثوك كثيرا، لكنك لم تسمع شيئا، بل كان تفكيرك منصبا على
كم رصاصة أصابته وفي أي موضع...؟!
- ليس مستو إينك وحدك ، ولم تفقده وحدك ؛ لقد كان بحق إبننا البار جميعا.
- لقد أرسل ميرزا في طلب المحول والمجارف لفتح قبره
- نستحلفك ألا تغير مثواه ؛ إذ تبدو هذه الأرض من نصيبه

- لقد عنيانا بالغ العناية بغميلة وتكفينه، و لو كنت بنفسك موجودا؛ لما فعلت
أفضل منا

- ثَقُ أن قلوب كبار القرية وصغارها يعتصرها الحزن والأسى على رحيله؛
فحتى الذين لم يصلوا طوال حياتهم قصصوا قبره مساءً وصلوا عليه؛

- جازاهم الله خيرا على شهامتهم و أدام الألفة بين القلوب، لكنهم لا يدرون لماذا
غيرت مثواه! فللوجع المنغرس في قلبي لا يتعمله أي قلب آخر...!

رفعت رأسك ، ونثت من فمك أمة طويلة و زهرة حرى... وشمرتك رائحة
غريبة منعشة شديدة الخصوصية ، وكان الرجال قد كتموا أنوفهم وأفواههم و
لم تدر هل من الحزن أم من تلك الرائحة؟! إنها رائحة غريبة يا ترى رائحة
ماذا؟! فهي تشبه رائحة وردة داوية حديثا ، لا، بل هي رائحة امرأة نفساء
حصرا!

أجل ؛ إن المرأة النفساء كثيرة الأحلام ، وأنت بطبيعتك تخشى كثيرا أحلام المرأة
النفساء! وكلما كانت آتة تلد طفلا؛ كنت تتحر ذبيحة قربانا لسلامتها .. أما هذه
المرأة ؛ فاللعنة على اللقاقة والضرناك ... وصار كلك رجاء أن تتعافي آتة وتنهض
بسرعة قبل أن ترى أي حلم ... لكنما وقع المحذور ؛ وتمخض حلمها عن هذه
الفجيعة المهولة: " أرجوك يا رجل أن تتحر ذبيحة نذرا، وأنت يا رب إرفق بنا
في شيخوختنا ، ولعنة الله على الشيطان الرجيم ؛ فقد رأيت في حلمي مستو
واقفا أمام مسجد حليق الشعر مرتديا ملابس سوداء وهو يقهقه ضاحكا !"

وجفلت على هدير التراكتور، وقم الحضور تعازيهم الحارة لك ، و بعدها
ركبت التراكتور يصحبك إثنان من أقربائك البيشمرکه.

" يا ترى ماذا نسمي ابننا هذا يا آتة؟"

" ليسميه مستو ..إذهب و زره ، وليجد إسما جميلا له"

و سار التراكتور واقتربتم من المدينة

" سمّه أيضا مستو!"

وبلغتم طرف المدينة، حيث توقف التراكتور ، ونزل منه البيشمرکه ؛ ليعودا
من حيث جاءا ، ولكنك سألتهما قبل الوداع:

- لي سؤال يؤرقني ؛ فأرجو و أستحلفكما بالله وكرستان أن تجيباني عنه بكل
صراحة...هل كان مستو فتى جبنا يولي الدبر في المعارك؟

- كلا ، والله كان بطلا مقداما في كل المعارك ، بل كان في طليعة الصائدين.. لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!
 فانطلقت منك تنهيدة عميقة حارقة:
 - لأنه أصيب من الخلف!
 فتسمرنا في مكانيهما متخفتبي الأوصال، بحيث لو طعنا بالخناجر لما سالت منهما قطرة دم!
 ثم صافحاك مودعين إليك ، فأشرت إلى جثمان فلذة كبديك :
 - أستودعكما الله...
 " وا أسفاه! فهو لم يشهد السنة الجديدة، ولو كنت تدري بأنه سيفارقكم بهذه السرعة ؛ لكنت تزوره أسبوعياً... أجل ؛ فعند الفراق تتجلى المحبة"
 ت ٢ / ١٩٨٦ ياخسمر

(*) دوغري: كلمة تركية شائعة تعني (صحيح ، مستقيم)

(**) هنا تلاعب بلسم (سلام)

(***) تلاعب بلغماتي (هه له = غلط) و(هه له له تعدن = تضليل)

إشكالية الثورة والواقع في (الرحيل الدامي)

أبو شهاب

" ليس بالمصالح وحده تقوم الثورة و تحيا" مثل هذا القول قد ينال إستحساناً وقبولاً على مريض ، وقد يثير نقاشاً ما في أقل الاحتمالات...أما إذا قيل: "ليس السلاح هو الشرط الأول للثورة" ؛ فالنقاش لا يلبث أن يتحول إلى إشكال، وربما إلى مباحكة سياسية.

و بما أن كلا القولين السابقين ينشأ عن إستقراء عمل أدبي ، ويُناقش في سياق التعرف على ملامح شخصية قصصية ؛ فلن منطلق السياسة، في الأمستقراء و النقاش على حد سواء، لا يعود معنيًا بالأمر هنا إلا بقدر ما تفسح له ضرورات المعالجة الأدبية من مجال...

ما هي الثورة؟

لا يختلف إثنان على ان الثورة رفض منهجي لواقع معين أو حالة معيشة، وفي الوقت نفسه مطالبة بواقع بديل أو حالة مغايرة..وهذا يعني أن الثورة هي (لا) و (نعم) متتاليتان ومترابطتان ؛ فالثورة بدون الـ (لا) تقتفي وبدون (نعم) تتحول إلى مجرد نزعة عدمية. ولكن سؤاليين يفرضان نفسيهما: (لا) لأي شيء؟ و (نعم) لأي شيء؟

وبعبارة أخرى: ما هو المرفوض وما هو المقبول؟

لاريب في ان العلاقة القائمة بين الـ (لا) و الـ (نعم) تفضي إلى الغايات التي تتبناها الثورات ، وإن إحلال المقبول محل المرفوض يفضي إلى تحديد الوسائل الملتزمة. واستنادا إلى التراث الثوري العالمي ، النظري منه خاصة؛ فإن " شرف الغاية من شرف الوسيلة" على حد تعبير ماركس ، ويتبع ذلك إذا شابت الوسيلة شائبة أو إعتورها سوس أو تخللتها رذيلة؛ فإن الغاية تفقد مصداقيتها ومشروعيتها، بل يحيط الشك بجودها وبإمكانية تحقيقها...وما يثير الإستغراب

هو أن ثمة آلاف مؤلفة من الناس ملزمت تعتقد و تؤمن جدتيا بتلك المقولة و مصداقيتها الواقعية و ممارستها التطبيقية رغم كل الرذائل الممارسة يوميا في كل أرجاء العالم بما فيها الثورات باسم الغايات الشريفة السامية!

وإذا كان الرائج أن ماركسافلي هو أول المنظرين لمبدأ " الغاية تبرر الوسيلة" والداعي إلى تطبيقه ؛ فالصواب هو أن هذا المبدأ كان سائدا و ساري المفعول قبل ماركسافلي بزمان سحيق ، منذ أن وجدت المصالح المتباينة وقامت الخلافات والنزاعات والصراعات بينها، ثم ما يبرح هذا المبدأ ساري المفعول على أفضل وجه ، بل أن عصرنا هو عصره الذهبي بلا منازع! وبلا أية أوهام وأية مباحكة غير مجدية نقول أن الثورات المعاصرة ، بما فيها الاشتراكية، قد برعت في تطبيق وتكريس هذا المبدأ براعة لا تقبل عن براعة الدول والحكومات؛ ولا عجب في ذلك ؛ مادامت تطمح هي أيضا أن تصبح دولا وحكومات ، وذلك بالعكس من مبادئها وشعاراتها المطروحة في بياناتها وبلاغاتها، ناهيك عن هجماتها الصاعقة على الايديولوجيا البرجوازية و دعائها ومفكرها، وفي مقدمتهم ماركسافلي المبيء الحظ! وقد لا يصنق الكثيرون أن لينين نفسه (التلميذ المتفوق لماركس و نبي الثورة الاشتراكية) كان يردد ويؤكد : " لا أخلاق في السياسة ، هناك فقط مصالح" و هو يعني أن كل فعل مباح و كل وسيلة مشروعة ؛ من أجل الغاية المنشودة : التحرر، الاشتراكية ، العدالة ، مجتمع المساواة... إلخ وهناك آخرون كثيرون قد يهزون أكتافهم باستخفاف أو لامبالاة وهم يقولون : " و ماذا بعد...؟ لقد جرى الأمر هكذا...ربما يكون هذا ضروريا... و لامناص منه... إلخ" وهو قول لا يخلو من الصواب؛ حين ترنده جموع تعودت على السلبية وامتساعتها كشكل لوجودها؛ إذ أن للرذيلة السياسية قوة البديهية وسلطة القانون و شفرات التاريخ ؛ بل أن أغلبية الناس لا ترى ضيرا في الإنخراط في دائرتها و ممارستها، وهي بذلك إنما تختار الـ (نعم) النهائية وتنغمس فيها بوعي أو بلا وعي...إلا أن بطل روايتنا هذه ليس واحدا من هذه الأغلبية.

لقد سبق للمفكر والأديب الفرنسي ألبير كامو أن تساءل: " الغاية تبرر الوسيلة ؟ هذا ممكن ، ولكن ما الذي سيبرر الغاية؟ على هذا السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً، يجيب المتمرد: الوسيلة ستبرر الغاية" (البيركامو/ الإنسان المتمرد/ ترجمة : نهاد رضا/ منشورات عويدات/ ص ٣٦٢)
حسناً، ما معنى أن الوسيلة ستبرر الغاية؟

لاندحة من عودة خاطفة بهذا الخصوص إلى كامو في كتابه المذكور.

يبدأ المتمرد بوعي الإنسان لكيونته، و بوجود (هذ) يعني تجاوزه من قبل (الأخر) تحطيم هذه الكيونة أو جانب منها، أو اضطهادها على أقل تقدير. وعن ذلك ينشأ لدى الأفراد إدراك " بأن في الإنسان شيئاً يمكن للإنسان أن يتوحد منه ذاتياً، و لو لوقت قصير" وهذا الإدراك يتضمن بالضرورة قيمة إيجابية تقف ضد وعلى النقيض من قيم (الانتقام) أو (القتل) أو (الحقد): " الغل هو دانماً غل ضد الذات، أما المتمرد ففي أول حركة تصدر عنه، يرفض من كيانه. إنه يناضل من أجل سلامة جزء من كيونته، ولا يسعى إلى التوسع ، بل إلى تأكيد الذات" فالمتمرد " يطالب بحرية معينة لشخصه، ولكنه لا يطالب في أية حال من الأحوال بحق تحطيم كيونة الآخرين و حرمتهم ؛ إذا كان منطقياً. إنه لا يذل أحداً. والحرية التي يلتزم ؛ يطالب بها من أجل الجميع، والحرية التي يرفض؛ يمنعها عن الجميع، فهو ليس فقط عبداً ضد سيده، بل هو أيضاً إنسان ضد عالم السيد والعبد" (نفس المصدر ص ٣٥٢) فيبدأ تمرده بالانتظام في ثورة على السلطة الغاشمة التي تستعبده أو تضطهده: (سيد، حكومة، سلطة دينية... إلخ) لكن هذه الثورة ما إن يشتد عودها، وتتوطد أسسها، وتبدأ بإحراز أولى نجاحاتها؛ حتى تنتكر لأصول التمرد، و تواجه أحد مازقين: إما إنكار نفسها، أو إنكار كل ما سواها، حيث تجد نفسها مضطرة إلى الاختيار بين الـ (نعم) النهائية أو الـ (لا) النهائية، أي بين التخلي عن التمرد، أو التفكير له.

و الحال أن التاريخ ، كما يبينه كامو، يتجه دوماً بالثورات المعاصرة إلى العدمية ، أي إلى خيانة قيم التمرد النقية بتكرار كل شيء ماعدا نفسها، بما في ذلك: تبرير إمتهان كرامة الإنسان والعنف والقتل ، ومن ثم إستبدال وضع

التعسف السابق الذي ثارت عليه يوضع جديد لا يقل عنه تعسفاً؛ تحججاً بتحقيق أهداف وغايات نبيلة موجلة دوماً إلى أزمان غير معلومة. و مثلما لا يوجد عبيد بلا سادة و لا سادة بلا عبيد؛ لن تعود العدمية والإنكار التام بدون ثوار عنصر الخضوع الكلي للطرف الآخر، أي لا سيادة لـ (اللا) النهائية على طرف الوضع المستجد بدون تكريس الـ (النعم) النهائية على الطرف الآخر كله، وعندها ينبغي على المتمرّد المنتكر لمبادئه تمرّده أن يختار في هذا الوضع المستجد إحدى الحالتين: عبد أم سيّد؟ ضحية أم جلاّد؟ مستكين أم مستبد؟ وعند هذا الحد حيث تغدو حركة التمرّد المنتظمة في ثورة ما أداة للسلطة الكليانية الجديدة وللنزعة العدمية التاريخية؛ ليس للمتمرّد الحقيقي الذي مابرح أميناً لمبادئه تمرّده إلا أن يقف وحيداً، غريباً و أعزل ، بل مصرّاً على مواصلة تمرّده وكفاحه حتى نهاية المطاف؛ حيث لا خيار له حتى لو أنرك عبث كفاحه، وأن يظلّ متعلقاً برؤيته السوية للكرامة والجمالية الإنسانيّتين المدهوستين تحت أقدام العدمية الغليظة، وملحاً في طرح الأسئلة على نفسه و على العالم: أين هي الغايات التي أرتكبت من أجلها كل الرذائل والتذالات والحقاقت والجرائم وأهدرت في سبيلها كل تلك الدماء، وبررت كل تلك الوسائل؟! وأن يظلّ في الوقت نفسه ملحاً على طرح الجواب نفسه عن ذلك (السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً) : الوسيلة هي التي تبرّر الغاية؛ وإلا فلا غاية هناك البتة، وليس هناك سوى العبوديّة والعنف والريلة ، بل ليس هناك سوى العدميّة العمياء الضاربة في مجاهل التاريخ على غير هدى!

لقد قلت أن بطل روايتنا ليس واحداً من (الأغلبية) التي تقبل الإنخراط في دائرة أو حراك النزعة العدمية باختيار الـ (نعم) النهائية ، أو الـ (لا) النهائية؛ إذن أين يجد موقعه بين إشكالية مستعصية الحل ، أو التجاوز بين ثورة إتخذها إطاراً للتمرّد و واقع متولد عن هذه الثورة ينتكر لأصول التمرّد ، و ما انفكّ ينتجه نحو العدميّة.

إبتداءً، لا يبدو البطل ، غير التعرف على أولى ملامحه، على قدر كاف من النضج و وضوح الرؤية؛ فهو يقرّر الإلتحاق بصفوف البيشمركة في الجبال

ناشداً إجتراح البطولات و تسميطير الأمجاد أكثر من نشدائه لممارسة التمرد بمعناه الحقيقي و تحقيق القيم التي يفترضها هذا التمرد: " - إنك طفل... ما زلت طفلاً " لا يكف أبى عن ترديد هذه العبارة، كما لو انني لم أفطم بعد! والله لأفعلن ما لم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحرك كل شخص ملحمة لي ! " ومع ذلك لابد من الإفراض بأنه مدفوع إلى الجبال لرفضه وضعاً معيناً إحتج عليه ، لكنه احتجاج ورفض العبد المناهض للميد ، وليس رفضاً و احتجاجاً ضد (عالم السيد والعبد) هذا هو الانطباع الذي يخلقه البطل في نفس القاريء في لقائه الأول به، و هو لقاء سريع يتم في الجملة الأولى من الرواية، علماً أن البناء الفني للرواية بلغة النقد يستند إلى (البنية المتمدة الأصوات) فهناك: (صوت الأب) و(صوت البطل) و(صوت ثالث) يتخلل هذين الصوتين هو صوت القاص نفسه، كما أن أحداث الرواية تجري في خطين يتخللان بعضهما بالتناوب. وعندما يلتقي القاريء بالبطل مرة أخرى، بعد صفحات عديدة؛ يجده (سناً للغاية) بعدما تمرس في الواقع ، وأعرض عن سراب البطولات والأمجاد، ويعاني في تفكيره من تناقض قد لايعيه تمام الوعي؛ حيث يرى (البشمركايتي هي لب و جوهر الثورة) والثورة (تغيير في كل ميادين الحياة) أما واقع الحال فثمة (قتال) وليس هناك (ثورة) وإذا ما أريد للقتال أن يغدو ثورة؛ فلا بد من أن ينطبع بـ (طابع الكادحين) و " أن نحذر من البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة ان يمضوا شوطاً أو شوطين ، ثم ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد لهم! " ومع ذلك نسمعه بعد بضعة أسطر يقول في حوار داخلي: " ... صحيح أن البشمركايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في أية حماة أسنة فتمرغ! حماة تعج بالصوف والأفاقين والمهرجين والمتطفلين والمشعوذين والمداهنين والمقاولين والنافهين والمرائين والميساسيين التجار المحترفين ؛ أما ترى النيران تحرق بنا من كل صوب ؛ إذا بقينا ماكثين في المستنقع وتغزونا الرائحة النتنة شيئاً فشيئاً، وإذا ما اخترقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعماً للنيران؟! فماذا

نفع يا ميرزا؟ لا بد ، كما يقول الأستاذ محمد، أن تقذف النكتة في النار بأيدينا؛ لكي نمثلك أنفسنا تماماً.."

ويمثل التناقض في تفكير البطل فيما يلي: إذا كان واقع البيشمركاني (العمل الفدائي) قد انتهى إلى أن يتحول إلى حماة أسنة تعج بكل تلك الأصناف الكريهة من الناس ؛ فمن المستحيل تحويل (القتال) إلى (ثورة) ويكون مجرد التفكير في إمكانية ذلك ضرباً من المزاجية.. ويبدو أن الأحداث اللاحقة في الرواية ستدل على هذا التشخيص وتحمس التناقض لصالح الواقع (الحماة الأسنة) ضد البطل ؛ إذ سيبقى القتال مجرد (قتال) و(التغيير في كل ميادين الحياة) سبلوح حليماً طويلاً أو مجرد وهم ، وتشتد رائحة القتالة وتتصاعد فتزكم أفرى الأنوف وأضعفها على حد سواء، وستنفذ النيران أكثر من الأجساد، بل ستتكاثر أصناف (اللصوص والأفاعين والمهرجين...) وتقوى سطوتها، ثم سيتضح لاحقاً في أحداث الرواية كمثل الواقع خطأ تصور البطل بأن (البرجوازيين غير قادرين إلا على قطع شوط أو شوطيين...) بل سيتضح له لاحقاً بأن (الحل والربط بأيديهم)؛ فلا خلاص له و لمسيبته وأمثلهما من الحماة التي ستقضي عليهم ، وإن (القافلة) ستصيبها النكبة لا محال، تاهيكم عن إنها لن تبلغ شاطئ الخلاص المنشود.

ثمة جملة يخاطب ميرزا إسماعيل بطل الرواية ؛ فيتخذها شعاراً لأنها تعتبر أصدق تعبير عن نزوعه : " البيشمركاني (العمل الفدائي) عبادة خالصة بلا رياء" وثمة جمل أخرى يخاطب ميرزا بها (خليفه خدر) توجز ما يؤول إليه التمرد بعد التناكر لمبادئه : " نأكد بأن قافلة يقودها جاهل أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنسطت الأرض أمامها!" وهناك عبارة أثيرة يتفوه بها (الخال عزيز) لتذيع على أسنة الناس ، وهي تختصر الوضع الذي يمزقه التناقض بين التمرد والعدمية : " أينما وجد العصف ؛ وجد البيشمركة.." ويتضح في المشاهد الأخيرة للرواية بأن البطل الذي يبدأ التمرد على نحو رومانسي ويدرك بأن " البيشمركة هو من أشعل في ذاته ثورة عارمة" سيغدو ضحية للفرعة العدمية

التي أفضى إليها تفنُّخ التمرد بعد انقطاعه عن جذوره، ويتقبل موته الخاص مردداً: " أينما وجد المسف ؛ وجد البشمر كـ.." وكأنه بصرٌ مؤكداً ألا مناص من التمرد والكفاح رغم الحمية السائدة، بل لا مناص من أن يكون المرء ببشمر كـ ؛ مادام هناك صف حتى لو أضحي ضحيةً لذلك الوضع ، بل و يتقبل موته الخاص إختياراً ؛ " فالتمرد الأمين لأصله يذل في التضحية على أن الحرية الحقّة ليست إزاء القتل ، بل إزاء موته الخاص " (المصدر السابق ص ٣٥٤)

للتحدّد الأرضية الزمنية للرواية بفترة أو مرحلة معيّنة ؛ فتمتدّ داخل بين زمنين مثلما فيها تداخل بين خطين ، وقد تكون أحداث (القافلة) على أحد ذلك الخطين ترميزاً لمسيرة الثورة الكردية وانتكاستها في عام ١٩٧٥ : " .. يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لا يجد سبيلاً للخروج من (جبل الصّدّ ما ردّ) وإن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمّلك سبع أرواح!" بينما تبدو الأحداث الدائرة على الخط الآخر بمثابة استمرار و تقاطع مع أحداث (القافلة)..إن الأحداث الدائرة على كلّ خط من كلا الخطين تبدو كـ (معادل موضوعي) للأحداث الدائرة على الخط الآخر، وما يعزز هذا الاعتقاد هو أن مفتاحي الخطين (إذا جازت مثل هذه الإستعارات) نجدهما لدى شخص واحد هو ميرزا إسماعيل، وهما عبارتا المتكررتان في الرواية: " البشمر كايّتي عبادة خالصة بلا رياء" و " تأكد بأن قافلة يقودها جاهل أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء المسيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!"

والملاحظ أن البطل لا يبدو عنصراً فاعلاً في أحداث الرواية، أو مانعاً لها ، أو مشاركاً في صنعها ، أو مؤثراً فيها، وإنما يبدو كممثل مرآة تنعكس فيها صور الشخصيات الأخرى وتتوالى عبرها الأحداث و تنعكس عليها ظلال الإشكالية التي يعيشها بين تمرد أراد أن يكون ثورة حقيقية وبين واقع متفنن لا يكف عن إخماد أصوات التمرد الحقيقي ، لكن هذا لا يشكل عنصراً ضعيف في الرواية أو ينتقص من مستواها الفني ؛ وإنما يشكل تصويراً تكنيكياً ناجحاً في رسم ملامح البطل في بنية روائية متعددة الأصوات ، أما ما يشكل نقطة ضعف

في شخصية البطل فهو صمته إزاء جريمة إغتيال (سيابند) وامتناعه الإدلاء حتى لأبيه ، و لو بجملة ، عن مقتله ، وهو سكوت غير مبرر قطعاً ؛ مادام قد قرر تقبل موته الخاص.

لابد من القول ، قبل الم شروع بقراءة الرواية ، انه من السذاجة والعبث أن يفتش القاريء في الوجوه الواقعية عن وجه : (محمود) أو (مستو) أو (سيابند) أو الآخرين من شخصيات الرواية ، أو أن يقارن أو يطابق بين أحداث الرواية وما يعرفه هو من أحداث الواقع ، ومع ذلك قد تكون ملامح محمود متوزعة على وجوه الكثيرين ، وبعض ملامح مستو في وجوه القليلين جداً. أما المقارنة والمطابقة فلن تؤدي إلا إلى سوء الفهم ؛ لأنه " إن كان ثمة حقيقة في العمل الفني ؛ فإنها لا توجد عادة في تطابقها مع الواقع الفعلي أو محاكاتها له " حسب (الواقعية) ديمين كرانث/ ترجمة: د. عبدالواحد لؤلؤة/ ص ٢٨) ثم إن " العلاقة الداخلية بين الواقع والخيال تشكل أساس شخصية الأدب " كما يقول والاس ستيفنز (ص ٣٠ المصدر نفسه)

عن المترجم

* جلال حسين محمد زنگبادي - لُرستاني (١٩٥١/١٢/١ كرديستان العراق)
* شاعر، مترجم وباحث عراقي باللغتين العربية والكردية، ويترجم إليهما عن: الفارسية، الإنكليزية، الإسبانية والأذرية... ينشر باسميه (ج ورده) و(ج زنگبادي) وأكثر من عشرة أسماء مستعارة.

* عصاميّ النشأة فبعد اغتيال والده في أواخر ١٩٦٠ لتشاطه الوطني استرجل مبكراً وانخرط في شتى الأعمال والحرف: صانع تشابيز، عبالاً، عاملاً في مكافحة البعوض وعامل بناء... ثم بائع كتب على الأرصعة في السنوات (١٩٨٧-١٩٩٧) وقد تعرض للترحيل والتبديد وفقد دارين له حجزاً ونسفاً في العهد الحفلي البائد.

* تتكليف ذاتي موسوعي، ابتدأ القراءة الجادة منذ (١٩٦١) والكتابة منذ (١٩٦٣) ثم النشر في الجرائد والمجلات منذ (١٩٦٧) لكنه لم ينشر حتى الآن إلا عشرة من كتبه المؤلفة والمترجمة وبضعة كتب بالإشتراك مع آخرين

* تخرّج في دار المعلمين الابتدائية بكركوك سنة ١٩٦٩ وعمل معلماً في التعليم الابتدائي (١٩٧١-١٩٩١) ثم في الجرائد والمجلات محرراً، مشرفاً ثقافياً ولغوياً، في الأقسام والملفات الأدبية والفنية والثقافية، وسكرتيراً ومديراً ورومناً للتحرير لبضع مجلات في إقليم كردستان العراق.

* راجع ونقح الكثير من النصوص الأدبية والبحثية والكتب المؤلفة والمترجمة لأبناء وباحثين كرد وعراقيين ومنهم أساتذة جامعيون.

* ساهم في الهيئات التأسيسية لـ (جمعية مترجمي كردستان ١٩٩٢) و (الحركة الشعبية الكردستانية ١٩٩٦)، (المركز الثقافي والاجتماعي لكركوك ١٩٩٨) و (مجلة نه وشه فه ق ٢٠٠٣ بكركوك)

* شارك بدور شاهد رئيس في الفيلم التسجيلي (الأراضي الضائعة) وهو عن تدمير البيئتين الطبيعية والبشرية في كردستان العراق/في ٢٠٠٠

* له مساهمات متواترة على صفحات بضعة مواقع إنترنتية منذ ١٩٩٩

* صدرت له:

- ١- أوتار التتالي... / فرهاد شاكلي / ترجمة عن الكردية / ٢٠٠٤ دار الحصاد - دمشق / سوريا
- ٢- ظنّ الصنوت و قصص أخرى / حمه كريم عارف / ترجمة وتقديم عن الكردية / ٢٠٠٥ كركوك / كردستان العراق.
- ٣- قصائد تأبى أي عنوان و..... / جلال زنگبادي / مؤسسة الرعد - كركوك / كردستان العراق
- ٤- ها هي معجزاتي (قصائد حب) / جلال زنگبادي ٢٠٠٩ دار الجمل - بيروت / بغداد
- ٥- سنة في الجحيم / مذكرات: مهلبك فرداغي / ترجمة عن الكردية / ٢٠١٠ وزارة الثقافة والشباب / إقليم كردستان العراق - أربيل
- ٦- ديوان عمر الخيام / دراسة وترجمة منقومة عن الفارسية ٢٠١٠ منشورات الجمل - بيروت / بغداد

٧- الثقافة الكردية، مشكلات، معضلات وألغاز.../٢٠١٠ منشورات مؤسسة مردم للطباعة والنشر
- السليمانية

٨- الخلدمة (رواية) خلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

٩- أسطورة كلي ناوردران (رواية للفتيان) خلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

١٠- ثلاث قصص للفتيان / خلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

* نشر أيضاً أكثر من عشرة كتب مؤلفة و مترجمة على صفحات المجالات بمثابة (كتب العدد)
وعلى صفحات المواقع النقية.

* له قيد النشر أكثر من (١٥ كتاباً) منها : موسوعة الخيام / خورخيه ماتريكي ، مرثية لأبيه،
ترجمة عن الإسبانية ودراسة/ صبرشيك تاج محل لمحمود كيوتوش ، عن الفارسية / هكذا شطح
الكافن مستقبلاً ، ملحمة مضادة / ٨١ قصيدة مختارة لسركون بواص ، ترجمة إلى الكردية /
لنعرف الخيام جيداً/ و ديوان الخيام ... بالثقفة الكردية...

الفهرست

الإهداء.....	٤
(الرحيل الدامي) رواية كردية رائدة/ جلال زنگابادي.....	٥
الرحيل الدامي.....	٢١
إشكالية الثورة والواقع في (الرحيل الدامي)/ أبو شهاب.....	٨٥
عن المترجم.....	٩٣



اتحاد الادباء الكرد
المركز العام 20